هجرة أبناء حامد

تداعيات في زمن الرحيل

أحمد الفضل أحمد

هجرة أبناء حامد

إعداد : أحمد الفضل أحمد
الطبعة الأولى : ٢٠٠٥م
جمع إلكتروني : أنس حسن
تصميم وإخراج فني : عصام عراقي
طباعة :
رسوم تشكيلية : عبد المجيد الفاضل عفيفي
الناشر : وحدة تنفيذ السدود – رئاسة الجمهورية – السودان
جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة
ترسل جميع المكاتبات باسم السيد / رئيس هيئة التحرير
على العنوان التالي :
السيد / مدير الإدارة العامة للمعلومات والتدريب والاعلام
وحدة تنفيذ السدود – رئاسة الجمهورية – السودان
السودان – الخرطوم – الرياض – شارع عبد الله الطيب
ص.ب : ١٢٨٤٣
هاتف : ٢٣٦٩٠١
فاكس : ٢٤١٢٠١
البريد الإلكتروني : info@merowedam.com

سلسلة
إصدارات
وحدة تنفيذ السدود

٩

هجرة أبناء حامد

تداعيات في زمن الرحيل

أحمد الفضل أحمد

فهرسة المكتبة الوطنية – السودان

304.809624 جمهورية السودان . رئاسة الجمهورية . وحدة تنفيذ السدود

و .س

رواية هجرة أبناء حامد / جمهورية السودان رئاسة الجمهورية .

وحدة تنفيذ السدود . – ط ١ .

١٩٤ ص : ١٧ سم

ردمك : 99942-815-7-7

١– الحامداب «قبيلة» – هجرة .

٢– الحامداب «قبيلة» – السودان .

أ . العنوان

سلسلة
إصدارات
وحدة تنفيذ السدود

رئيس مجلس الإدارة

أسامة عبد الله محمد الحسن

المشرف العام

محمد الحسن احمد الحضري

رئيس هيئة التحرير

ضياء الدين محمد عبد القادر

رئيس التحرير

عمر محمد عبد الرحيم باسان

مدير التحرير

خالد عثمان محمود

سكرتير التحرير

محمد عثمان مصطفى

المستشارون

اللجنة العلمية لتوثيق تاريخ

المنطقة المتأثرة بقيام سد مروي

بروفيسور : يوسف فضل حسن	رئيساً
بروفيسور : عون الشريف قاسم	رئيساً مناوباً
بروفيسور : حسن مكي محمد أحمد	عضواً
د. أحمد عبد العال	عضواً
د. جعفر ميرغني	عضواً
د. علي صالح كرار	عضواً
أ. حسن حسين	عضواً
د. طارق أحمد عثمان	عضواً
بروفيسور عبد الرحيم علي	عضواً
بروفيسور علي عثمان محمد صالح	عضواً
بروفيسور سيد حامد حريز	عضواً
د. حسن محمد صالح	عضواً

الاصدارة رقم (٩)

تصدر عن : وحدة تنفيذ السدود

رئاسة الجمهورية - السودان

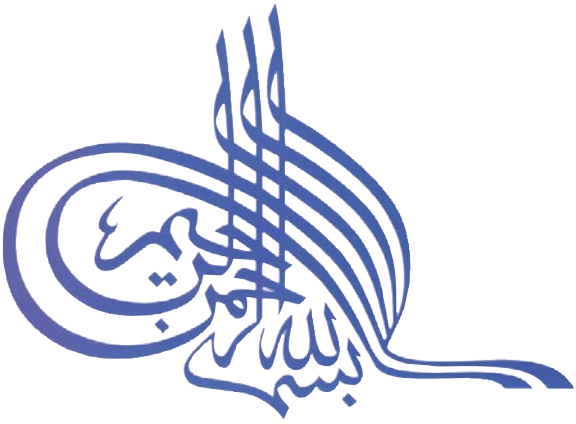
بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله القائل «نحن نقص عليك أحسن القصص والسلام على صاحب أعطر سيرة ورواية حكاها فمُ الزمان.

أما بعد

فيوم أن خرج الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة وهو يشير إليها ببنانه ويناجيها بحنانه ويناديها بلسانه ويغازلها ببيانه.

«والله إنّك لأحب بلاد الله إلى قلبي»

يومذاك كانت يثرب « المدينة المنورة» بعد ذاك تتقلب في جمر الشوق حتى أذن القدر وشاع الخبر بقدوم الحبيب المنتظر سيد الملائك والجان والبشر وكان النشيد «طلع البدر علينا» وحُقَّ الحمد والثناء «وجب الشكر علينا» وشرف المكان «جئت شرفت المدينة» وإستدار الزمان وأدرك الإنسان حكمة الذي كان.

«إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً».

ويأتي شاعر المنطقة .. معبراً عن خلجات النفوس بلسان أهله وهم يؤثرون على أنفسهم .. كأنهم الأوس والخزرج الذين آمنوا ونصروا .. أو كأنهم أهل الهجرة الأولى الذين ربحوا البيع قائلاً :

كلامي البقولوا عليه ما بتلام

وحمدابنا القديم عندي فوقا نظام

لوما التنمية وطاعة الحكام

ما بنفارق النيل ونجاور التمتام

** ** **

ويعجبك خليلنا الماشي بالريقان

أولادنا الشباب في الساحة زي فرسان

لو ما الكهرباء لي رفعة السودان

ما كنا بنوافق ونقبل الخزان

وها هي رواية «هجرة بناء حامد» واحدة من ملامح التاريخ بلدي التي تنبئ بفتح مبين يقدمه أهل تلك الديار الموقنين بقول رب العاملين :(ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة)، والبشري لأهل السودان أجمعين وكلهم ينادي.

هذي يدي لسماء المجد أرفعها

رمزاً يشير إلى المستقبل الحسن

لما نرجيه تحت الشمس من وطر

وما نفديه بالأرواح منه وطن

وللعروبة من نجد إلى يمن

إنا خرجنا وأرهفنا عزائمنا

للنهوض بشعب للعلا قمن

الله أكبر هذا الرَوْح أعرفه

إذا تذكرت أيامي ويعرفني

كنا ننميه سراً في جوانحنا

حتى استحال إلى الإجهاض والعلن

الناشر

تقديم

أنا من الشمال، من النوبة القديمة من الشمالية الجديدة، وحدها الجنوبي، حيث الخزان، بلدي، كما هو بلد الآلاف الذين رحلوا والباقون. وهذه الرواية التوثيقية الأدبية، التي نحن بصددها، هجرة أبناء حامد منها وإليها.

في فصول «قصص» قصيرة غرس الكاتب الروائي أحمد الفضل، أشهر أنواع نباتات وزهور وفواكه المنطقة، وجعلها والإنسان، في زمانها المعاصر، والحديث والوسيط والقديم، ثم أبرز معالمها الطبيعية، تحكي ما كان في الزمان الماضي، وما صار فيه من حدث اجتماعي أو سياسي أو ديني، أبهر، لتتحول الحكايات الماضيات إلي حاضر قلق ومستقبل مفعم بالأمل والشوق إلى الآتي الزاهر الموعود.

وأنا لا أريد أن أفسد متعة القارئ الكريم بالحديث المشروح عما سيقرأ في هذا الكتاب، هذه الرواية المفارقة للنصوص القديمة، ولكنني أريد أن أشاركه التمتع بجزالة العبارة ورونقها، وبانسياب اللغة وبساطتها، وبدقة الوصف والوصل وصدقيتها كما أريد أن أقول له، إنني وأنا أقرأ هذه التداعيات، سمعت زفات قلوب العذاري في الصدور، كما نظرت الأوردة والشرايين، والأحمر القاني الدافق يجري فيها مندفعاً تارة ومنساباً تارة أخرى، رمزاً للانفعال الذي ملأ به الكاتب سطوره عن أرض أحبها وعن أهل عايشهم صدقاً وحباً.

والفعل الأساسي، خزان يتدخل في ناقوس المجرى النيلي الأبدي يزرع أرضاً جرداء وينبت حباً طيباً، وينشئ طاقة جديدة متجددة لتدور الآلات وتضاء الطرق المظلمة، ونسميها التنمية المستدامة، ولكنا ونحن

نعيش العصر، نربطها بالثقافة ونربط الثقافة معها، ونربط كل ذلك بما يلزمه من رحيل الجماعات إلى أراضي جديدة تعمر، ليصير الفعل الأساسي تنمية الإنسان على أساس من العلم والمعرفة والتخطيط، وتصبح هذه الرواية إحدى روافد تلك التنمية، ومعها كل أفعال اللجنة العلمية – لتوثيق تراث وتاريخ المنطقة المتأثرة من قيام سد مروي – المعلومة، واللّه من وراء القصد وإليه ننيب.

إن فعل وإنتاج الأديب والكاتب والدرامي والتشكيلي والموسيقي هو الذي يرسم الصورة الكاملة لثقافة جماعة ما، وقد استطاع الأستاذ أحمد الفضل أن يعمل لبناء أحداث أبناء حامد، خبرة الأديب والكاتب الدرامي، فأجاد، وكاد أن يكمل الصورة الكلية المبتغاة وإن فارقت هذه الرواية، شروط الرواية المعروفة، فذلك لأنها فعل كبير، تتداخل فيه العناصر وتتشابك فلا تكاد تري الواحد دون المجموعة، ولا تكاد تحس بزمان منفرد دون الدهر كله، فيصير المكان دنيا فعل، ويصير الزمان دهراً ممتد، تصير الشخوص قوماً منهم من علي الدنيا ومنهم من في الآخرة، ومنهم من لم يوجد أصلاً، في شكل فيزيائى، ولكنه كان ومازال وسيظل هناك موجوداً، فقراءة ممتعة باذن الله، وانفعال يجعلك منا لنبني الغد المشرق سوياً، لوطن العزة، السودان.

والحمد لله رب العالمين

عل عثمان محمد صالح
من أبناء الشمالية
البحرين - المنامة
الساعة الخامسة صباحاً الأربعاء 2005/12/5م

توطئة

عن تلك المنطقة الملهمة والموحية كان فعل السرد في الزمان والمكان «أرض الحضارة السودانية القديمة» التي امتزجت فيها العناصر السامية الوافدة مع النوبة والبجا .. أرض حضارة الاستقرار الزراعي وفن الايقا ع الشعري على آلة الطمبور فالجميع هناك شعراء بالفطرة..

وللمنطقة «المراد إعادة توطينها» سحرها الخاص في هويتها الذاتية العقائدية والسحرية للذاكرة الجمعية لأهالي الحامداب .. هؤلاء البسطاء الطيبون .. والمثابرون.

يتحرك «فعل السرد» هنا بحركة المجموع في داخل الحيز الزماني والمكاني في البُعد عن سيطرة السارد البطل الأحادي والفردي التقليدي .. والجميع هنا أبطال في أغوار ذاكرة التأريخ وصناعة المستقبل ما بين الحلم والواقع .. المتجدد.

والحدث هنا غير مركزي .. والقراءة هنا كُلية غير مجزوءة تجمع بين الوثائقية والفن .. في شكل لوحات متعددة المشاهد في تداخلتها التاريخية والثقافية والإجتماعية من عمق الماضي واستشراق المستقبل.

والموضوع هنا «كبير» على رأي الناقد «جبرا إبراهيم جبرا» في

فكرته ومعالجاته .. وهذا يستدعي خلق أشكال متطورة .. من النقطة المركزية للحدث الكبير .. فكرة وتنفيذاً وتشييداً.

وكانت هناك رحلات ومشاهدات ميدانية ما بين المنطقة القديمة والجديدة .. تلك الأيام العذبة بين كرم أهلها وأريحيتهم الفائقة في الترحاب والاستضافة والرقعة الحميمة .. وهم الأغنياء بذائقتهم الجمالية وسمو أخلاقياتهم المتوارثة عبر الدهور الذين تعلمت منهم الكثير .. وتبقى الذكرى العطرة دافقة بالألفة والتواصل.

وقضية «الرحيل» قديمة في هذه المنطقة وقد كتب على هامشها من قبل في أرض النوبة السفلى داخل مصر عن التاريخ والجغرافيا والأفراد حيث المشابهة والتطابُق .. فكان «محمد خليل قاسم» في – الشمندورة – ورواية «نجمة أغسطس» لصنع الله ابراهيم – عن السد العالي – واستدعى ذلك الإطلاع على مؤلفات من إصدارات «سد مروي» وعن تأريخ السودان وأفريقيا وبلاد العرب والممالك القديمة والوقائع الوطنية الحديثة وحتى «كتاب الطبقات» في تحقيقه .. كانت مراجع ووثائق.

«د. يوسف فضل حسن ومكي شبيكة ومندور المهدي وجيوفاني فانتيني ومحجوب باشري ود. أحمد المعتصم الشيخ ونعوم شقير وفاطمة أحمد علي..» ومقابلات ومشاهدات – الأهالي – في القريتين «٢» و«٣» وجزيرتي «أولي وسفي...» الرواية وثيقة للمجتمع في حياة أفراده للثابت والمتحول ولها خاصيتها في اللغة والإيقاع .. ومعمار الرواية الحديثة تتعدد أصواته في تخليق الوقائع وتتقبل المغامرة

والتجريب في بحثها لكافة المواضيع.

كان وراء هذا العمل اهتمام وحماسة ومتابعة وإيمان بجدوي أن يكون هناك أثراً فنياً وأدبياً مصاحباً .. وقد وجدتُ في ذلك تسهيلات وتعضيداً وحسن الظن العريض من الأساتذة :

عمر محمد عبد الرحيم باسان

خالد عثمان محمود

محمد عثمان مصطفى

المنصوري – عبد المنعم

فلهم الشكر..

والتقدير والإمتنان..

للبروفيسور علي عثمان محمد صالح – لتقديمه وتوجيهاته المُقدَّرة..

المخلص

أحمد الفضل أحمد

الخرطوم - نوفمبر 2005م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وهو الذي مَدّ الأرضَ وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً ومن كل الثَّمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغْشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . .*«٣» وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوانٌ وغيرٌ صنوان يُسْقى بماء واحد ونُفضِّل بَعضَها على بعضٍ في الأكل إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون . .* «٤»﴾

سورة الرعد- الآيات"٣-٤"

﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةٌ بقدرها فاحتملَ السيلُ زبَداً رابياً، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلْية أو متاع زبدٌ مثلُهُ كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ، فأما الزبَدُ فيَذهبَ جُفاءً وأمَّا ما يَنفَعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلك يَضربُ اللَّه الأمثال*«١٧»﴾

سورة الرعد- الآية"١٧"

﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آيةٌ، جنتَّان عن يمينٍ وشمالٍ ،كُلُوا من رزق ربِّكُم واشْكُروا لَهُ بَلدةٌ طيِّبةٌ وربٌ غَفورٌ* «١٥»﴾

سورة سبأ- الآية "١٥"

العربي حاملُ السَّوط
حل على بادِية السودان كالخرِيف بالسُنَّة والكِتاب
يَحملُ في رحالِه طُموحَهُ ولوحه وتمرتين في جُراب
وشَجر الأنساب
أي مجدٍ سوف نُنشئه معاً على ضِفاف النيل
أي مجد لو صفت نياتُنا الاثنين

*** *** ***

وأنا..
أي سَوطٍ يستطِيع
أي تمساحٍ عنيف
أي صحراءٍ وما زحَفُ الرمل
إنّ أجدادي يموتون غَراماً وطَرب
وضعوا الساعِدَ في الساعد
فالرملُ انْسحب
والنخيلُ انبثقت بين الجِراح الصادحة

صلاح أحمد إبراهيم - غضبة الهبباي

*** *** ***

وترقُصُ نخلتُنا بالظلال
وتحملُ أثمارَها كالعيال
وأُمي وكلُ نِساء الجزيرة

يَجدِلنْ أبراشنا والسِّلال

وتجثوا التماسِيحُ فوق الرِمال

تُحدِّقُ في جَنبات التِلال

تُخوِّفُ أُختي بها كيْ تنام

وتَرغب زينب ألا تنام

- جيلي عبدالرحمن-

***

من زمن الجَهل بِنَسمع الخَزان

ودابو الحد وصَل واتْفرَقو الحبِان

يا النيل الكِبير البِروِي لِلعطشان

يا قِرير جروفنا الِفي السَّموم رويان

***

يا قرير جروفنا الزَّي سواد الليل

حليلك يا بلدنا

ويا منظر تَمُرنا الفوق شواطي النيل

حليلك يا بَلدنا

ويا جبل كُلِقيلي الشامخ زيَ جبل تُوتيل

حليلك يا بَلدنا

***

أنا اسْمِي جَمال بِتْ مكاسر

اسمي جمال عبدالناصر
مُفتش مكنة وعَنابر...

***

كلامي البَقُولو عليهُ ماَ بتلام
وحمدابنا القديم أنا عندي فُوقو نظام
لوما التنميةَ وطاعة الحُكام
ما بنفارق النيل ونجاورِ التَّمتام

****

ويعجبِك نخيلنا الماشِي بالرِيقان
أولادنا الشباب في الساحة زي فِرْسان
لو ما الكهرباء لِي رِفعة السُّودان
ما كنا بنوافق ونَقبل الخَزان

***

بس تعدِّي مويتك تسيل
شَارْبَه من النيل العَليل
كلُ بيت قِداموا برميل
وصارف البترول بالتقِيل
٨٠٠ فدان ... قليل
وناتجه كُل أنواعَ المحاصِيل

***

سُبحان ربي الأْ مجَدك ❖❖❖ واتجلى فيك باسمِه المجيد
وحَيَّاك منَ بعد المَمات ❖❖❖ ودَّاك اسم حَمْداب جديد
ما ظنِّي كان بِتَحلمي ❖❖❖ آذان يِردِ في صَباح فجراً جديد
صوت الجَرس صاح المُعلم للعِلم ❖❖❖ وردَّد تلاميذ والنشيد
هناك زغرودة فَرح وعريس ❖❖❖ مجرتك وأهلو فرحانين شديد
والرحمة عمَّت للرمال ❖❖❖ وهناك صُراخ مولود جديد
يا ربيَ نرجو رحمَتك ❖❖❖ أوعدنا يا صَادق الوعِيد
تَخضِّر وادي الملتقى ❖❖❖ وَتْبقالنا حامداب جديد

«حُجرة أحمد عثمان»

الشريان

ننتقل في إقليم شبه الصحراء والصحراء في الأرض الصفراء نعبر إلى – الحامداب الجديدة– في الدرب الجديد لانتوه كما كان ذلك قبلا خلف القيزان.. الموت عطشاً بعيداً عن النيل... هذا شريان أصبح نهراً تعبر عليه سيارات وناقلات.. تتفرق على طوله المقاهي.. قهوة «الحميدي» يستروح الناس ويطعمون.. طبقة الأسفلت تحتاج لطبقة أخرى سميكة لتتحمل مرور الشاحنات والرافعات الثقيلة التي تتجه شمالاً.. لقد وفروا أياماً وجهداً من وعثاء السفر.. «لواري الأستن والبدفورد والسفنجات» تحمل التمور والبقول جنوباً...

قال الشيخ– العبيد ودبدر «السافِل يا غافل!» والسافل هو الشمال الموعود بالخيرات بحسب التأويل إستشرافاً للمستقبل الذي يتشكَّل يخترق الزمان الآتي...

الخط الناقل للكهرباء من «مروي لأم درمان» وقد صُبَّ أول برج ناقل في منطقة «جبال المرخيات» حيث اجتمع هناك عُربانْ القِديات على صهوات جيادهم وجمالهم.. وكان الجو معكراً بهبوب الرياح الرملية ومع ذلك فإن الفرح يأتي.. فالكهرباء تعبر لمناطق بعيدة وشاسعة... يستقيم وينحني الطريق بطبقته الخفيفة يشق الخلاء الفسيح وسيمضي بعيداً حتى «حلفا القديمة ثم القاهرة» والبحر المتوسط، هذا الشريان الذي

سيكون نهراً مضافاً وموازياً يفيض خيراً ويخترق العزلة والصمت والجفاف.. الأشجار الشوكية القصيرة تتناثر بين التلال الجرداء والرمال المتماوجة..

«...استعنتُ على الرحلة بشرائط الاستماع التي وافقت إيقاعي النفسي وميولي الباطنية ... فأتت على مزاجي..» ساعات قليلة وسنصل للفضاءات السهلية التي اخضَّرت بفضلهم ودأبهم لما خرجوا من تلك المعاقيل الحصينة البعيدة عن المؤثرات الطاغية الكاسحة التي ما مسختهم.. وكانت عزلتهم محجوبة بطبيعتها التي صدت عنهم المحتلين والمعتدين الأوباش.. وكانت عزلة خلاقه...

تمر «عربات الحمير» تحمل المياه على البراميل تختفي عند البيوت الرملية ... تأتي بالمياه التي نبعت بعد حفر الآبار الأرتوازية الجديدة مع قيام طريق شريان الشمال، وقامت الواحات الجديدة لبستنة الصحراء... تنثال على الذاكرة – نوستالجيا– الأمكنة القديمة في التاريخ الذي بدأ من هناك ثم يبدأ من جديد بدورة مغايرة..

قوز– أبوضلوع– كان وحلاً من الرمال تنشحط عليه العربات وفي حدود الولاية كانت هناك مدرسة مصطفَّة صفوفها للعرب الرحل ونقطة للأمن.. تفوقت المدرسة وأحرزت نتائج متقدمة.. وفي – جعيرين– الأرض مُبستنة بشجر– البان– وسط القيزان وأكوام الحجارة السوداء.. المسجد الأبيض وحياة تمور منبثقةً من العدم.. خضرة ومياه مرفوعة دون مشقة.. وتبدأ الشجيرات القصيرة المتقاربة تتباعد في التلال

الترابية الصخرية.. وتجري حافلات الركاب الصغيرة البيضاء- التايوتا- ... بعض من البيوت الطينية والقهاوي البلدية متهدمة ومهجورة فإلى أين ذهبوا؟! تستروح في مقهي- التمتام- بصات الإكسبرس الحمراء وهي نازلة- للدبة والغابة- ودخلت في الخدمة البصات البيضاء السياحية المكيَّفة ذات الخدمات تجري موازية للنيل بعيداً تلتقيه عند المنحنى في - مروي- ... المسافات والمسطحات الرملية الرمضاء والشجيرات التي احترقت جذوعها بالعطش والرياح السافيه بالرمال والحصى فابيَّض لحاها فأصبح أملس رخامياً وشجراً من الحجارة..! وتبين وتختفي على مد الأفق التلال العفراء البعيدة.. ولا تزيد السرعة عن ١٢٠ كيلومتر / الساعة على الطريق المبسوط..

وما أجمل حيطان الطين الجالوصي المتماسك العالي والأملس في مقهى- التمتام- في صدرالصحراء واحات منعشة ومشاتل ومولدات كهربائية اكتست بها السهول الرملية ثوباً أخضر فيستقيم وينحني الطريق حولها.. وإلى مقهى «أم الحسن» المقهى الشهير نقف عنده.. كان مركزاً ومرشداً للتائهين يجوس في عرصات المكان رجالات - الهواوير- يعرفون المسالك والمتاهات يقصُّون الدروب وراء السيارات الضائعة ينقذون رمق الأرواح الهالكة ويدفنون الأموات ينزلون بها لدنقلا أو يصعدون بها لأم درمان.. يدلّون الناس في هجير النهار وظلمة الليل.. ينقلون الأخبار...

ومن - أم جواسير- ارتحلت- أم الحسن- مع زوجها وأولادها لهذا

المكان الموحش تقدم الماء والشاي للقوافل.. المكان القفر الشحيح الذي ارتحل منه خط المطر في السنوات الأخيرة وكانت من قبل أمطاره الخفيفة تنبت حشائش- التبس- مرعي للحيوانات الصغيرة من الغنم والماعز.. والإبل.. تساقطت الأشجار وسفَّت الخيران والأودية الرمال الزاحفة النشيطة ... يجلب الرجال الماء كل يومين أو ثلاثة يركبون الجمال من بئر «الحزامية» يصلون للمقهى...

كان تاريخ المقهى مع بداية الحكم الوطني.. وعندها كان الوزير الأول في الحكومة- عبدالله بك خليل- وامتدت شهرة المرأة عند كل الرؤساء والجنرالات الذين مروا ومضوا.. وقفوا عند - أم الحسن- وتزودوا واستروحوا ثم انقضت أيامها.. وعندما جرى - الشريان- انتقلت من مكانها القديم وأصبحت قريباً منه.. ونشأ معها مقهى- أبو إدريس- الجديد الذي يقابلها..

يذكر - الحسانية والقريَّات والهواوير- الرجل - الحاج عطا المنان- بالفضل ويدعون له بالخيرات.. أخرجت الدوانكي للصهاريج مياه السُقيا وري البساتين من عمق الصحراء حتى تناثرت الواحات! شتول وعلف وأشجار طويلة.. ومن بعد مسافة قليلة كان الطريق القديم يشق العقبات ينزل في أرض سطحها أخرش بالحصى الأسود والتلال العفراء.. تضيع هنا لولا المعالم البارزة التي غرسها - كير- علامات ترشد.. وتمر بتلال- الضبايعية- ثم - الجبل الأسود- ثم تظهر الحافرات تشق القناة الرئيسية تبدو قوساً كبيراً لتروي مشروع- أمري الجديد- تخرج من

باطن المجرى الطين الأسود.. فلا يغرنك طبقة الرمال السطحية على وجه التربة.. وتلوح البيوت الجديدة متراصَّة في القرية الكبيرة وقد أوشكت المساكن على الانتهاء بموادها الثابتة.. هنا توشك أن تبدأ حياة جديدة ومغايرة في الزراعة والعمران.. فوق وادي المقدم تحميهم طبيعتهم الراسخة والتليدة في معالم وطرائق حياتهم المألوفة الساكنة وقد بدأت بينهم الحضارة النيلية الأولى وتراكمت إبداعاتهم الخلاقة وأخلاقياتهم التي توارثوها كابراً عن كابر وقد انتشروا في الأصقاع.. ويصدح المغني داخل السيارة «اللاندكروزر» السريعة..

سفرك بكره قالوا

ولو عدلتو مالو...

ونصل لمفترق الطرق عند صينية «الملتقى» فيمشي الطريق غرباً «... دبة.. دنقلا..» والطريق الشرقي- لمروي- ودخلنا إلى إدارة المشروع الزراعي في القرية الإدارية.. وبتنا ليلتنا في الإستراحة في ضيافة مع عدة أشخاص تقاطروا في مهمات عديدة يجذبهم السَّد هناك..

ملتقى قصور اللؤلؤ

وقد وصلنا – الحامداب الجديدة– ترقد هناك فوق السهول والخلاء الرحيب الذي أخرج من باطنه حياة العصور البائدة.. بيض النعام وعقود الصدف والمعدات الفخارية وعقود الحديد والخواتم.. فكانت الحياة عامرة في تلك الآماد السحيقة.. في – الملتقى – يسقون بالساقية في العهد المسيحي وانطمر ذلك ثم جاء الخبير الحديث واختار موقع ضخ البيارة اليوم في الموقع القديم.. ولم تكن الرمال السافيات بصورتها المزعجة اليوم ومصدَّات الرياح الطبيعية كانت غزيرة متشابكة ومتقاربة.. والفضاءات في غطائها الشجرى إلى – قشابي وقنتي– حتى حضن النيل...

هذه الأرض خالية من – الصودية والقلويه– ينحسر النيل هناك في – البديرية– وستأتي لهم الترعة بعد سنوات خارجة لترويهم.. ويؤثر ذلك على عربان– الهواوير والكبابيش– الذين أتوا في هجرات حديثة بسبب المتغيرات المناخية... وامتهنوا العمالة الزراعية في – تفقيس النخيل وحصاد الفواكه..... حتى غلبت عليهم ثقافة البيئة الجديدة.. وتغنوا بالطمبور في براعة تخدع الذي لا يرصد تفاصيل التاريخ الاجتماعي المتداخل...

فأيهم يا ترى « ... الكباشي والبديري والهواري والشايقي...؟» على الكثبان وبعيداً عن النيل قريباً من الطريق ينصبون بيوتهم وأكواخهم المتفرقة مع زرائب دوابهم..

ترقد هناك القريتان «٢» و «٣» .. تبدو كأنها مدائن صغيرة قصوراً مشادة من اللؤلؤ .. تعلو من هناك مئذنة المسجد تظهر من بعيد .. تفصلنا عنها الأنهر السرابية تتماوج رهاباً .. يصلها طريق رملي غير معبد .. وتقترب من البيوت البيضاء المتراصَّة يشد بعضها بعضاً.. وهذه آخر أيام الشتاء ببرودته اللطيفة .. نجد الميادين الكبيرة بين المرابيع لمناشط الرياضة والمناسبات .. تتوسط القرية السوق والبقالات والقصَّابات .. وتوزيع الغاز والطاحونة .. تمتد أسلاك الكهرباء لتدخل البيوت.. الحقول القريبة المكشوفة تمتد فيها الرقع الخضراء من البرسيم الأخضر تريح النظر .. وبعض شتول التمر.. بعض زرائب الأغنام والماعز ملحقة قريباً من الكلأ .. سيقيمون صباح اليوم التالي عيداً لحصاد القمح .. وتبدو الحزم الصفراء مربوطة في الحيضان بعض من الرجال والنساء داخل الحقل .. يتأهبون للعودة للقرية وقد اشتدت حرارة النهار...

تهب الرياح الشمالية والشرقية في هذا المدى من الفضاء الواسع تسف ذرات الرمال للحقول المكشوفة تراباً من القاذفات يحجب الرؤية ويُنمِّي الكثبان...! انتهى الموسم الشتوي .. ذهبنا للمشتل التعليمي ووجدنا آلافاً من الشجيرات الصغيرة – كتاكيت صغيرة – في قراطيسها من نوع – كلي وتراجمة – وغيرها من أنواع لها مسميات أعجمية... وتلك أبحاث من المناطق – الجعلية ويظهر نموها بعد سنتين من تاريخه .. هذه الأنواع – الجعلية – يقال عنها أنها صبورة ومقاومة للجفاف وستكون أحزمة غابية ومصدَّات للرياح وتساعد أيضاً في

تشجير القنوات من أشجار – البان والكتر والباركنسوت– فيها ظلال وزينة وجمال وحماية تعجب الناظرين يتنسمونها تقلب المناخ وتزيد من خصوبة التربة ثم يستفيد منها الحيوان يأكل من البقايا أوراقاً وأغصاناً .. وفي شبابها وشيخوختها وكهولتها تعطي خشباً للغرف والأثاث والمظلات..

وقد انخدع الناس في مناطق أخرى بشجر – المسكيت– الذي غطى الأرض غطاءاً شيطانياً فأتلف الزراعات..!

يقول المرشدون للمزارعين أنه لابد من الإلتزام – بالحزم التقنية– فلا يزيد حقل القمح عن إحدى عشرة أسبوعاً في الري...

كانت قد تمت الدراسات الاجتماعية عن تعداد الأسرة والبيوت والمغروسات والتمور وفي اليوم الموعود بالرحيل والهجرة للوطن الجديد ... أتت اللواري الكبيرة فحملت الممتلكات ثم أعقبتها الحافلات لعامة المواطنين ما عدا العجزة والمسنين وأصحاب الحالات الخاصة والأمهات الوالدات حديثاً فحملتهم السيارات المريحة والمجهزة من– ليموزين ولاندكروزر.. ذهبوا للمكاتب بعد استلام البطاقة وصرفوا مال التعويضات في التمر والمغروسات الموسمية على الحيضان...اشتدت حالات التخبط والبكاء ثم اختلط ذلك بالفرح لدى النساء والأطفال.. الذين سينتقلون من حال إلى حال.. من مسقطهم للدنيا الجديدة والقرية المتمدنة التي اكتمل إنشاؤها بخدماتها في السهول اللافحة بالسموم والرياح الصيفية والشتوية الجامحة.. والآن قد اكتملت ترتيبات

الأشياء... وكانت قديماً هنا الحياة متقِّدة تموج بالمخلوقات البرية والغزلان تمرح.. – أم كبجو وأبوحراب وغزال الريم الذي لا يميل لشرب الماء مكتفياً بالعشب الأخضر...!

سبقتهم في الهجرة امرأة مسلمة نُبِش قبرها ووجدوها على حالها كانت لاتزال وحملوها من – الحامداب القديمة– ودفنوها بكريمة وحملوا مع العفش – فسائل التمر– التي سيزرعونها داخل وخارج الحيشان الجديدة.. هؤلاء – الكدنقاب– ما انقطعت هجراتهم في الزمان القديم والحديث بحثاً عن العمل وطلب العلم والتجارة والزراعة... التي وجدوها في السهول الفيضية في أرض القاش والتاكا ودخلوا بمفتاح السيد «محمد الحسن الميرغني» المشهود عنه والمروى عنه في التاريخ.. يضيئ جلبابُه يخرج من أكمامه شعاع القمر يشرف عليهم من أعالي جبال– التاكا– يتعبد ويذكر يرتقي في مدارج التوحيد.. يقول فيه– بابكرود المتعارض– يمدحه...

شي لله يا حسن ... يا أستاذ الزمن
كل ما نلته عنه حصلته
منه إذ كنته...

وكان التهجير نموذجياً توفرت لهم فيه الإعاشة والضيافة ومواد التموين الأرز والسكر والقمح والغاز... «وأخذوها معهم ودفنوها.. وقد وجدوها بحالة تامة يكسو هيكلها الجلد وشعرها الطويل بحالة جميلة..!» تلك المرأة..

كان ارتباط – الحامداب – بالأرض في جبال – التاكا – قوياً وامتلكوا السواقي الجنوبية .. وشملهم بالرعاية السيد – محمد عثمان الثالث وأخوه – محمد الحسن...

قالت : النعمة – تمدح – أبوجلابية :-

يا فمي جيب وزِن ... فوق السيد الحسن
في كسلا سَكَن..... بدور لي فيك ضمن
بحر الزلال النيل..... الصافِي للغسيل...

أخرجت الأرض الجديدة في – الملتقى– محصولها.. وكان متوسط إنتاج الحواشة من القمح ما يتراوح بين سبعة وثمانية جوالات.. أما – البرنجي– من المزارعين النشطاء فقد أنتجت مزرعته إحدى عشر جوالاً... فقد كان منتبهاً ومتيقظاً لا يبارح حقله...

هلع الناس في – الحامداب القديمة – وأيام الرحيل تقترب فأهملوا سقاية التمور... فحزنت وذبلت وأصفر جريدها.. يقولون أن النخيل لا يقدر بأي ثمن.. فالنخلة بنت عمتهم يكرمونها... وقد تعيش أكثر من مائة عام... يفكرون في إستجلاب الشتول المحسنة من مشتل – سوبا – التمر ... «الحبري».. الآتي من العراق الذي يشبه– المشرق وودلقاي... تمر حسن وجيد وشجرته ليست سامقة كشجرنا. قصيرة وتنتج إنتاجاً كبيراً يزيد عن الثلاثة قناطير وشجرتنا المُحسَّنة لا يزيد إنتاجها عن القنطار الواحد.. وشتول– سوبا– مرتفعة القيمة.. ولا بد من الرجوع لما ألفوا من الشتول المحسنة.. التمر يدخل في وجباتهم الدسمة من « ... القنديلة والعجوة المشرق» يعمل الفلاح طول نهاره في الحقل لا يستعين

إلا بالتمر الجاف لا يقطع عمله وهو يدور مع الساقية أو يشتغل مع الوابور الحديث.. يكتمل عشاؤه عند رجوعه في المغيب للبيت...

يتركون – البركاوي – في العراء يجف ويصبر لخمس سنوات تحمله اللواري تجارياً للصعيد والمدائن المطيرة والجبال... النائية تحت خط المطر..

وكان نمطهم الموروث من أسلافهم في الزراعة الموسمية التقليدية يفلحون الجروف والجزائر بالقمح والفول والشمار والحلبة في الموسم الشتوي...

ولابد هنا في– حامدابهم الجديد– من تجهيز الأرض وسقايتها وإيلافها وسكب مزيد من الجهد والعرق والمداومة والحضور والإشراف عليها فتعطيك مما عندها.. هذه الأرض الجديدة يعينوها بالسماد والمخصبات من – الفوسفات واليوري– وحتى إن السماد العضوي من الروث يفيد كثيراً...!

وكانت الحامداب مشهورة بجودة شتولها فيأتي لهم الجيران يأخذونها ويغرسونها في – كريمة– وما جاورها..! والتمور المشتولة تحتاج لأحزمة واقية في طفولتها..فهل تثمر في السنوات الثلاث الأولى بالأرض الجديدة... يتساءل – وقيع الله مع حسن– لا يرجم حسن بالغيب ويقول ظناً قد تكون خمس سنوات...!

شتيل قنديلي ساقِنُو ❖❖❖ وجديد بركاوي قاطعنو
وشليخ الجاوة جادعنو ❖❖❖ وعروق المنقة معزوقه

سبيط المشرق إندلاً ❖❖❖ ومتين بي عَسلو إتْبلا
رطب.. توعدنا يا الله ❖❖❖ وصباح نلقاه في سُوقه...

وخرج من – الحامداب– الشغيلة من عمال بناء الجالوص كأبناء عمومتهم– المناصير– لبنادر الصعيد وقرى الجزيرة يشيدون الحيشان والمربعات الصغيرة ثم خرج– الترابلة لجهات السافل في – البرقيق ودنقلا– وبعضهم صعدوا للزيداب عند الجعليين وبعضهم أصبحوا عمال حكومة وأفنديات.. والعاشقون للفروسية والجندية قصدوا مصر... حرسوا الثغور ومدائن الوجه القبلي ومنطقة قنال السويس...

راحو ضاربين البنادر
راحو للهم والدرادِر
نَسُولك أنو المولى قادر
وما في غير مَقْدُور تلاقِي
كل واحد قال مُسافر
وخلا خير الأرض وافر
في الزحام روَّح يدافر
مرة عدمان مرة بيلاقي

والأرض العزيزة ضيقة... وخرج آخرون للبلاد البعيدة عبر البحار... والأرض العزيزة مع النيل.. السمحة– الحيبي . فهذه صفتها...

الخيارات الصعبة

كان الحلم كبيراً لدى – ذو النون عبدالنبي– وعبدالباقي الطاهر– في معتمدية السد.. تجمع رجال– الحامداب– من الأعيان وركبوا السيارات السريعة الفخيمة التي تتحمل مشقات عبور الفلوات الصعبة لأختيار موقع التهجير المناسب.. وكانوا على السيارات لأيام عديدة ومتواصلة.. لم يجدوا راحة بين الخيارات العديدة وقطعوا المسافات ما بين شندي ودنقلا .. في وادي «النقع» أرسلوا النظر بعيداً في السهل الواسع بعيداً عن النيل يزرعه الأهالي مطرياً منذ العهد التركي ثم دولة المهدية.. والأرض مملوكة لأهلها بعقود موثقة وصحيحة... ولا يمكن التفريط فيها مما استدعى هجوم الأهالي عن بكرة أبيهم على موظفي الشركة ومخططيها الذين دخلوا المنطقة دون استئذان أو تمهيد سابق.. ونتج بذلك الهجوم الكاسح... ما جعل الشركة تنسحب وتلغي عقدها.. دون عودة.. ودخل مشايخ المنطقة للحراسات والزنازين.. علم الوفد بذلك... مما جعل أهل المنطقة ينظرون لهم بحذر وما بخلوا بضيافتهم واستقبالهم بعد ذلك فكر الإنجليز بإنشاء مضرب طرمبات في وادي– المكابراب– جنوباً من الدامر.. هنا المساحات واسعة.. وتشتهر المنطقة بزراعة أجود أنواع الحناء.. ترتسم على أكف الحسان.. وامتلك هنا كثير من «الزبيدية» أراضي.. وحبَّذ – المناصير– تلك الأراضي وإلى الكحيلة شرق وهي قريبة من أراضيهم الوعرة الضيقة.. أرض –

التكاكي– ما بين الشلال الرابع والخامس وتلك شركة– موننكو أقرا– الكندية تريد أن تجد لها موضعاً ما بين – الكاب وأبوحمد– في نمرة – عشرة– عند تقاطع المنطقة الصحراوية.. ونظروا إلى «سهل العفَّاض» قريبا من كريمة وتربة السهل رسوبية وخصبة ومستوية وخالية من العوائق وبالمثل فهناك سهل – البان–...

ومشروع – اللاَّر– وليس بعيداً عن مروي تغطِّيه جنائن التمر وإلى الضفاف الشرقية في – البرصة– وفي المناطق الغربية مشروع– القولد– وروم البكري إلى جنوب القولد وفي التخطيط المنظور أنها ستكون أراضي مستقبلية يحوزها الإستثمار.. وسهول – الخوي– الواسعة تمتد طولياً موازية للنيل وفي باطنها تتوفر المياه الجوفية وتزحف عليها الرمال من جنوبها في دنقلا...

وعلى أرض البطانة منطقة – الرهد– في مناخها المطير يأخذون دورة زراعية جديدة مغايرة.. ولكنها لا تكفي حتى سكانها الأصليين ثم الوافدين من التخوم الغربية.. والري يكون إنسيابياً.. وهي منطقة جاذبة وبعيدة عن مواطنهم و «.. الملتقى» هو الأمر الواقع القريب منهم... ويصبح الحلم حقيقة...

والأرض الجديدة ينسكب عليها العرق في تسوية أرضها وإرواء عطشها ومكافحة زحف الرمال المنثالة ولا يفترون.. يَسيّجون الزرائب حول الحواشة يربون الخراف فهي مصدر للدخل يسد الثغرات.. والمياه هنا متوفرة وفي الحامداب كانوا يعانون من إرتفاع قيمة الوقود

والإسبيرات للطلمبات النازلة ترتفع لتسقي الأرض الحجرية الضيقة.. في مدة لا تزيد عن العشرة أيام.. ينحسر النيل من الجروف يزرعونها بـ «اللوبيا والترمس، والفاصوليا والفول» ويذهبون بالأغنام للأسواق يبيعونها كمصدر للدخل المتنوع...

كان الوداع والمغادرة في صورة مؤثرة وهم يقتحمون المجهول انفطرت القلوب وأتت بعض الأسر التي لم يجئ دورها في التهجير للوداع الأخير.. وتقاطر الأضياف في بيوتهم الجديدة ومكثوا معهم لمدة خمسة أيام.. وقدمت الحكومة ما استطاعت من إعانة لحين استكمال الإنتاج ولترتوي الحواشات المعفيَّة عن السداد بالمياه تجرى في جداولها ولمدة عامين ويرى المزارعون أن ذلك لا يكفي ويرون تمديداً لثلاث أو أربع سنوات مقبلات.. تبترد الأرض الرمضاء بعكارة مياه الدميرة تزيد في خصوبتها فيقطعون «فدانين» من المساحة للبستنة «الموالح على تعددها مع البرسيم» ويعشمون في إعفاءات الري.. الآن فانهم قد امتلكوا مساحات مضاعفة عن أراضيهم القديمة.. وتم استقطاع احتياطي للأجيال القادمة التي لم تنزل نطفها للماء والطين..! ستة من الأفدنة للأسرة الواحدة وقد تزيد إن كان الابن مقيماً ومتزوجاً.. ومن كان لا يملك فقد امتلك حواشة..!

وكانت نقلة الخدمات سريعة داخل البيوت المتفاوتة المساحات بحسب التعداد الأسري من ستمائة متر مربع وما فوق بالمنافع والحجرات وصالون الاستقبال الذي أُلحِق حديثاً..

ترك – ياسر ودالحسن– وهجر العمل في السواقي الجنوبية بكسلا وأتى – للحامداب الجديدة– ممتلئاً حماسة ورغبة للعمل بعد أن امتلك حواشة لنفسه وهو يعمل الآن في «حواشة والده» في انتظار – البلدوزر– لإزاحة الرمال.. وقد تعطلت الآلة... وسيشرع في العمل بمزرعته بعد تسوية الأرض وتمهيدها.. تقوم بأعباء الإزاحة شركة «.. بتروهلب» يبتل – ياسر– بعرق النهار المالح في المزرعة يتذكر النيل والسباحة في المياه الجارية تحت أشجار النخيل.. ومع كل الصعاب المصاحبة للهجرة فإن النقلة جميلة وبديعة يقول ذلك وفي الانتظار رحيل الفوج الرابع الآتي يجهزون له الحقول والمساكن ولابد من إنسياب المياه لتغمر كل الحقول.. فيبترد عطشها الطويل.. تلك الأرض الواسعة المحتاجة لطاقة من الصبر والمثابرة العنيدة..!

وكان الفرح كبيراً عند استلام الأوراق الخضراء من الدينارات تعويضاً لقيمة التمر ثم المغروسات.. أهدر بعضهم الأموال في أوجه بعيدة عن طبيعتهم.. اشتروا الحافلات الصغيرة والبكاسي ولم يفكروا في مدخلات الزراعة بشراء شتول صغيرة .. وبعضهم بسط يده كل البسط في شراء الأسَّرة الجديدة والمتاع والصرف اليومي الباذخ وسداد الديون المتراكمة وتجديد الأفراح للأولاد وشراء عدة المطبخ الحديثة... مما جعل موظف هيئة المياه والكهرباء بعد انقضاء فترة السماح لستة الأشهر الأولى يقف عند الباب متأهباً لقطع الخدمة فوراً عقب نهاية كل شهر ودون إمهال.. فكيف كان يمكن ضبط إيقاع تلك

النقلة السريعة، وتبخر عند البعض مال تعويضات التمور للخمسة وعشرين نخلة وما فوق ذلك يستلمونه على أقساط سنوية...

اضطُّر – عبدالسيد ومحمد خير وفتح الرحمن...» للذهاب والعمل في – مترات قوشابي قريباً منهم يواجهون متطلبات السيولة اليومية.. و الذين في قلوبهم وقدة الحماسة الزائدة يفكرون بالعمل الناجز السريع في إخضرار الأحواض رديفاً مع محصول القمح... بتوفير التقاوى والبذور والشتول المحسنة وفات عليهم أنهم لم يمسكوا هدايا الإغاثة عقب فيضان ١٩٨٨م، وقد أنتجوا إنتاجاً سريعاً ووافراً من – الفاصوليا واللوبيا والخُضْرة... ولم يمسك المزارعون بذرتها فتحسروا..! وبعد أن تستأنس الأرض ستخرج البصل والشمار ثم يستجلبون أبقار – الفريزين– تدر اللبن وتفيض على مصانع الجبنة الصغيرة وفي الحظائر يسمنون الحملان– الصغيرة يربونها تكبر ويبيعونها كالعهد بهم في الأسواق حيث أنها معروفة بجودتها ونوعيتها السلالية الممتازة... قال– محجوب ودصالح.

إن هناك مستقبلاً عريضاً وزاهراً يلوح لهم... وهو مشهور بينهم بأنه مزارع جاد وممتاز برغم أنه مولع بحب الزعامة والكلام الكثير والاعتراضات العديدة التي يبديها في الاجتماعات من داخل النادي.. الذي بدأ يمتلئ بالنشاط الثقافي والاجتماعي والرياضي.. يؤمه الكثير من الشباب..!!

ولدت– سرورة– مولودتها كأول مولود في القرية «٣» وسمتها –

هِجرة- وتمت عدة زيجات كانت دعواتها بالكروت المطبوعة.... وفي زواج - عادل ودسعيد- كان المطرب الجديد يغني بالساوند- ونزلت الساحة الفتيات الصغيرات بأزيائهن اللامعة بالغة الأناقة وقد صففن شعورهن فلمعت تحت الضوء الساطع وذكر لي - حسين عثمان- أن تجمع القرى في مكان واحد قد خلق علاقات جديدة ومباشرة بتوحد المشاعر واتحاد الرؤيا في مواجهة واقع جديد بكل ما يطرأ عليه من تغيرات وتنمية التعاضد القديم والقيم الموروثة لدى كافة- أهل الحامداب في سلوكياتهم وطبائعهم الموروثة بدخول تيارات الحداثة في علاقاتهم التي بدأت تتشكل من دون إسقاط للأزمنة السالفة التي يتوافقون على التمسك بها كمؤشر لجماعة لها خصوصيتها بين المجموعات الأخرى...

العيون الساجية

ومن بعد الهجرة فهنا الأحلام قد انقطعت تماماً وبعد المكوث والارتحال لأكثر من عام كامل.. فان- عبدالكريم- ينام ويصحو وليس في ذاكرته مشهد.. فالأشياء وقفت في مكانها.. ومن بعد انقطاع أتاه الحلم المزعج أخيراً... وكالعادة فإنه يعبر من قريته على الضفة الغربية يقصد مدرسته في - أم مريخ - حيث يعمل في المدرسة التي تستقبل تلاميذها من المناطق الأخرى في - داخلية- تجمهم وتطعمهم ... ويرجع مع نهاية كل أسبوع في معية أولاده وبناته يدرسون معه فيعبرون النيل ويحملون معهم ما فاض من أنصبتهم في «حصة العون الغذائي» من المعلبات الغذائية... كبر الأولاد والبنات وانتقلوا للمراحل الأخرى... ثم رأى في الحلم ومن على الضفة الشرقية أن - إخلاص- بنته تتخبط تطلب النجدة وهي تصارع موج الدميرة.. تبين وتختفي.. فكيف الوصول لها وإنقاذها... فبدأ يصرخ ويركض على حافة النهر ولا من مغيث... حتى صحى من النوم مفزوعاً يلهث... ! فأين تلك الأحلام العذبة في - الحامداب- ما بين النيل والصخر والعبور بين الجزر وإنطلاق الخيال ورائحة الطين... والحياة الشقيَّة والسعيدة؟! وأين هي يا ترى اليوم فلماذا لا تأتي - هدية- وما حدث لها في تصاريف الأيام... فقد كانت تلميذة صغيرة في المدرسة وعلى عَتبات التفتح العذب قريباً من السنة الدراسية السادسة.. يدخل الفصل ويؤدي واجبه بحيوية ملحوظة وإخلاص.. ينظر نحوها مختلساً في تعفف .. ثم يخرج يلهث من عاطفة

الانفعال . وهي حاضرة لا تفارقه فينشغل بها انشغالاً كتوماً يحرق دواخله فلا يبوح لأحد.. ويظل ساهماً ساكتاً ثم يلتقيها في اليوم التالي... تستمع إلى الحصة بعذوبة وصفاء فما الشئ الواضح الذي يجذبه نحوها وهي يافعة لا تدرك شيئا مما يدورحولها...؟! وبلغ به الحال أن عيل صبراً وما تردد في اصطحاب أهله يخطبونها له قبل أن يخطفها أحد.. من الأقارب أو الأباعد على طول المنطقة... وصبر على ذلك سنوات وهو شديد التوله والإخلاص، وكان – الراتب– الشهري على أيامها كافياً لسداد الاحتياجات الضرورية والتوفير... وكان يختار كسوتها بنفسه ويرسلها لها، وكم كان جميلاً وبديعاً أن يراها وهي تلبس من ثوب – الترقال– قميصاً تعطيه من عندها توحداً جاذباً في ألوانه الحديقة..! يخرج من بيته يذهب للنهر في تلك الساعة المعلومة من بعد وقت الإفطار أو عند ساعة العصاري.. تنزل الفتيات للنهر يردن يحملن الماء لبيوتهن وهن يغنين ويمرحن يتلاطفن ... يرقب المشهد وهو من على الضفة الغربية... يرسل فؤاده يطير لها يصوِّب نظراته نحوها يسددها ويصطادها من دونهن.. هي وحدها يكاد أن يرميها وهي تتسلق الصخر تتمايس يسيل على شعرها الماء تبتل ضفائرها السوداء الغليظة... فكيف بها يا ترى وهل تعلم بحاله؟! وهل تحدث صويحباتها وتشير له بعيونها الجياشة وما عليه من بعد الآن إلا أن يأتي بأهله من أصحابه وأصدقائه الرجال والشباب يبنون له منزله– بالفزع– ثم يقضي حوائجه الأخرى ويكمل كل المستلزمات من سوق – كريمة، تشاور مع – والده– وقطعا ميعاداً للزواج والدخول ثم قصدا والدها وعبرا النهر وكان الميعاد جد قريب فلا يتجاوز الشهر من تاريخه..... وما كان من والدها

إلا أن رفض تحديد الميعاد بتلك الصورة الصارمة... وقال «.. إن عليَّ مشاورات مع أهلي في الخرطوم وكسلا ليحضروا كل مراسم الزواج ولابد من وقت يسع دون عجلة... وميعادكم لا يتناسب معنا... نؤجله حيناً من الزمن...!»

لم يرض- عبدالكريم ووالده بذلك وكان إصرارهما على الميعاد المحدد صلباً ومتطرفاً. وما كان هناك حلاً وسطاً توفيقياً وكلُ استبد برأيه ... وأمره والده أن ينسى هذا الأمر.... فأخذت - عبدالكريم- العزة والصلف وما تجاهل طاعة والده... وما تراجع وانقطع ذهابه للنيل حتى ينسى... وعندما أفاق بعد حين أخذه الحنين الجارف والحسرة وبلغ به التصدع منتهاه حتى وجدوا له زوجاً أخرى.

ومرت السنوات وارتحلت من موطنها لتكمل دراستها وعلى غير ميعاد... ولم يقع النظر عليها طيلة سنوات عديدة... وترعرع أولاده وبناته. وطمر قلبه تحت ماء بارد... ثم سافر لأهله شرقا في - كسلا- وقف عند الباب يطرقه... وعصفت به المباغتة وخرج قلبه من مستودعه وانذبح تحت قدميها.. في لقاء مستحيل دون ميعاد! «هي» بذاتها وبعد كل تلك السنوات.. إنخلع صدره ويحلق بعينيه شاخصاً دون كلام في منزل أقربائه... هي التي تفتح له الباب دون غيرها من أهل الدار..!! والجراح قد انفتحت من جديد...

سافر يا جرح جُواي ❖❖❖ سافر فوق جناح السرعة

والمحبوب وقت يجرحنا ❖❖❖ لو في ضمير يحِس ويوعي

جرح الريدة كان يتعدَّى ❖❖❖ من ضمن العجايب السبعة

الضايق عجايب الريدة ❖❖❖ يهويه الأثر بالخُلعة
بالليل والجراح نتَّاحة ❖❖❖ والناس ناموا بعد الهجعة
شفت بنات نعش في دمعي ❖❖❖ أتهادن بهي الطلعة
يا ست الحسان أحلامنا ❖❖❖ ما بنلقاها عن ست ودعة
في دنيا الغرام والريدة ❖❖❖ البكا النواح.. ما بدعه
زول كانت مشاعره عليك ❖❖❖ جاري زي الحجر في الفلعة
محتار نارو كيف يطفيها ❖❖❖ ما دام النفس بقي ولعة

العلوم والفنون

دخلنا للمدرسة ووجدنا التلاميذ داخل الصفوف يدرسون في تمام الدوام ويواظبون.. الآن فان المدرسة تجمعهم كلهم هنا... وكانوا من قبل يمتطون «الحمير» ويعبرون من الجزائر بالقوارب الصغيرة وقد بدأت أول مدرسة في – الحامداب– منتصف القرن الماضي.. يقصدون مدرسة واحدة من عدة أمكنة.. يحمل التلميذ إفطاره على – البستلة– يكون منهكاً عقلاً وجسداً في ذهابه وإيابه.. ومنذ أربعينات القرن المنصرم وإلى مجئ حكومة الفريق إبراهيم عبود يتم الاختيار للدراسة في المدرسة «الصغرى» في «نوري» يختارون ستة تلاميذ من الحامداب وستة تلاميذ من أمري وثلاثة من الدقاقيين يكملون دراسة الثلاث سنوات ثم ينتقلون لدراسة الصف الرابع في المدرسة الأولية بكورتي يمكثون في – داخلية المدرسة– تقوم بإطعامهم.... وفي العطلة الكبيرة يعودون لأهاليهم وهم قد اقتصدوا ووفروا من حصتهم الغذائية– معلبات الساردين واللبن المجفف والصابون وكل ما جاء بعد ذلك من العون الغذائي الذي عمَّ كل داخليات المدارس في المناطق الريفية....

أحرزت «هذه المدرسة» نتائج باهرة من بين كل المدارس المختلطة في الأقليم الشمالي من حلفا وحتى أمري... أعاد ذلك ذكرى تاريخ التفوق القديم في عقد السبعينات من القرن المنصرم وكان التلاميذ يستعينون في دراساتهم وهم في الداخليات الملحقة بالمدارس ذات

التجمع والكثافة!

مدارس «الحامداب الجديد» اكتملت بناياتها ما بين مرحلة الأساس والثانوي.. وأصبح الجو صحياً ونموذجياً للتلقي.. كانت نوعية الإجلاس للتلاميذ داخل الصفوف وكذلك في مكاتب المعلمين من – ترابيز ومقاعد ومناضد ودواليب رديئة في صناعتها وأُرسلت على عجل.... وتم علاج ذلك الخلل محلياً دون شكوى... هناك «القاعات والمعامل والكافتيريا والدورات الصحية...» ثم أدوات المناشط.... ويبدو أن كل تلميذ وتلميذة يمتلك كتاباً للمواد الدراسية المختلفة وكان أداء التلاميذ في الإذاعة المدرسية منوعاً في فقراته في الطابور الصباحي... أصبحت المدرسة مكاناً جاذباً يقضي فيها التلميذ معظم أوقاته ما بين الصباح والمساء... وازدهرت الجمعيات الأدبية التي يحضرها الآباء والأمهات وعلقوا على الحيطان الجرائد والمجلات يتنافسون في موضوعاتها ورسومها.

انتظمت حياة التلميذ وسيطر على الوقت السائب فتغير نمط سلوكياتهم في التفرغ للتحصيل وأداء الواجبات المنزلية وارتفعت المستويات عامة وتلاءمت حواليه الأشياء... ويبدو ذلك ملحوظاً في هندامه حتى إن كثيراً من الفاقد التربوي قد عاود ورجع للدراسة من جديد.. فلا تكلف المدرسة اليوم رهقاً، يخرج التلميذ من الصف يتناول إفطاره في منزله ويرجع للمدرسة..

فمتى يدخل الحاسوب ؟ وهم يتهيؤن لذلك.. ومتى تزيد مساحة اللون الأخضر في الأرض الغبشاء داخل حرم المدرسة ويتم إحاطتها من

جوانبها الأربعة بأشجار «النيم» خاصة وأنه يحمي الرؤوس من إنصباب كتل الخرسانة الحرارية من عين الشمس القوية والسماء السافرة المستعرة...؟ يقول «عبدالله صالح» أن مشكلة نقص المعلمين ستحل مع مجيئ ووصول الفوج الرابع.. وكتبَ التلميذ- رماح- موضوعاً إنشائياً عن ارتباطه وحنينه للنيل وشجرة - الدوم- المثمرة قرب بيتهم... أثنى على سلامة أسلوبه «المعلم».. مما جعل- رماح- يعلق موضوعه في الجريدة الحائطية..! وذكرت«سلمى أبوزيد» أنها تجد وقتاً مريحاً للاستذكار والذهاب بانتظام للمدرسة ولا شئ يحتاج منها لتعب فقد كانت تشقى، تجلب الماء وترد للنيل صباح مساء وبرغم طلوعها ونزولها فإنها تجد في ذلك متعة وهي تسلك الدروب تحت ظلال النخيل والزراعات...

*** ما تم رصده من قاموس جديد أصبح متداولاً»**

١/ الغيط ... وترتبط الكلمة بالمفتش الزراعي- صلاح أحمد محمد- وأصبح صلاح غيط..!

٢/ المترسة.... وتعني تدبير ومظاهرة.. أو إبداء عصيان واحتجاج وتذمر... وكان ذلك قد ارتبط مع توترات أيام الإحصاء الأولى ثم أصبحت الكلمة شائعة لإبداء نوع من التعبير المضاد والرفض.. المطلق.

٣/ الهيتر /أنبوبة الغاز/ البوتجاز.... وقدمت للأسر مجاناً.

٤/ البومبا... وهي المجرى المجوف المصبوب بالأسمنت الذي يخفض سرعة جريان الماء حتى لا تندفع وتغمر الحواشة.. وكان الأصل المعروف لديهم- السبلوقة-

٥/ البلك.. وهي مجموعة الحواشات التي تشرب من جدول - أبوعشرين-

٦/ النقال.. الكلتود...

٧/ الأوده... وهي تعني البيت

٨/ المطبخ.... الذي هو التكل....

٩/ الحّمام وهو «الأدب - خانة» وإن كانوا في الحقيقة يقضون «الحاجة» في العراء خلف الصخور..

١٠/ البوستر... وتعني الرافع الثاني للمياه.. ذات التروس العليا التي لا يمكن رفعها بمكنة واحدة...

وكان الحديث يتم بينهم بتلك التعريفات الجديدة والتقطها التلاميذ يكتبونها على جرائد الحائط....!

المودة والرحمة

وصلت العاجبة بنت الزبير من قرية – الشيخاب– في السنة الرابعة مع الفوج الثالث.. وامتلكت البيت والحواشة وقالت : إنها سعيدة مع بناتها وما انقطعت صلتها بأهلها وأحبابها في – أمري القديمة– وتبدو امرأة قوية كاملة الصحة ونشيطة ... كان زوجها الأول – تميم– عسكرياً في مدينة– كوستي– توفي عنها ولم يكمل العام.. ثم جاء الرجل الثاني الغريب من بلاد الجعليين–استوطن البلدة، وكانت شغلته التجوال بين القرى والمدائن الصغيرة... يجمع التمر والخراف ويذهب بها للأسواق واشتهر بين الناس بالدماثة والحياء والهِمة... وأراد الزواج فزوجوه.. التي اختارها بنفسه والتي أضمر نحوها الغرام المكتوم.. جاشت في قلبه الموسيقى العذبة فقد كانت ترقص في الحلبة في زواج بنت خالتها «الروضة»..

دار الرجل حولها.. في الساحة، كان إيقاع– العاجبة– البنيوي مترابطاً ومتكاملاً نغمياً.. وعندما اقترب منها أعطته من شعرها المدهون المرصع بأصداف– الودع– شبالاً عفيفاً فكان ذلك لحظة التلقيح مع هبوب الرياح بين النخلتين...! فولد منها أولاداً وبناتاً وإفتتح متجراً صغيراً.. وعاشت معه في أحوال منتعشة ... حتى كان عام وباء– السحائي– الذي انتقل وحمله أحدهم من ودمدني الجزيرة– فمات فيه– عوض طه ومعه عشرون من الصبيان والرجال ثم زوجها، فتم عزل

المنطقة وجاء المفتش الصحي ومعاونوه ودخلوا المنطقة على جمالهم وخيولهم يحاصرون الوباء قبل انتقاله للجزائر الأخرى... وفي السنوات البعيدة تلك يمر –مساعد الحكيم– على قرى الحامداب ينظر في الحالات العادية يعالجها ويحول الحالات المستعصية إلى – مروي أو عطبرة– مع استيفاء تصاريح تكلفة السفر والعلاج ... يتذكر ذلك جيداً– الحاج عثمان– ثم يبتسم في وجوه الحاضرين..! كان تقدير – العاجبة– لزوجها الثاني متفوقاً على المألوف من حسن المودة وهو بالمثل قد يتفوق حيناً على مر تلك السنوات العامرة والقصيرة.. يعاتبها يقول إنها تهمله ولا تهتم به اهتماماً كافياً... تقول له وهي تتحنن وتترقق:–

يا الإخيدر عود الأراك

أنا وين لقيتك لا مِن آباك

أنت في صدري ومشتهاك

عاد أخلي الفي وأقوم معاك؟

ناحت عليه نوحاً ورقصت مفجوعة في – الكابور– على إيقا ع النقارة، وحثت على رأسها الرماد والتراب وكان ذلك حداداً لمدة أسبوعين..!

ويشهد له الناس الذين عاشوا ذلك الزمن أنه قد أكرمها بصورة باذخة في زواجها منه وبعد يوم « الأربعين» من دخوله عليها، فعل لها العجائب مع أنها– ثيب– وليست بكراً تجرى عليهاتلك العوائد التي اندثرت اليوم... وكان قد جلب لها الهدوم من – الزردخان– الفركة أم صفيح– الألبسة الداخلية من السحالي وثوب الحرير– المبردي وثوب

الصواعق..!

غاب عنها العزيز للأبد... وعندما ينزل النيل ويضمر تذهب معها بناتها «للجرف» تحمل «سلوكتها» تضع بذار اللوبيا والترمس والدخن والفاصوليا والفول والطماطم..

في المساء يجتمع حولها الأولاد والبنات الصغار، يأتونها من قعر «الحلَّة» يسمعون منها الحكايات يتقرفصون تحت قدميها، تجلس على عنقريبها- تحت ضوء القمر، يخرج من وراء التلال ويستدير، تتكئ بعد العشاء، تمسح جسدها بزيت السمسم وقوائم وعوارض عنقريبها وحبالها مسودَّة من أثر لمس مسوح أياديها يستمعون لحكاياتها المشوقة فتحجزهم وتشغلهم عن الذهاب للنيل خوفاً من مخاطر الغرق والتماسيح و «السحرة» يأتون من «الهناك» وهم بقايا سحرة «فرعون» ويتحولون لتماسيح.. فكان من عادتهم احترازاً عند مجيئ الأضياف والزوار الغرباء.. يقدمون للواحد منهم اللبن.. فإن شربه فليس بساحر وإن رفض ذلك وردَّ الأناء فهو الساحر الحقيقي... وعندها يسرعون بالتخلص منه بأي وسيلة وحيلة..!

يأتي- الهمبوتي- بشكله القبيح وظله الأسود.. يخرج من النهر يتجه للبيوت بحذر شديد.. يغافلهم ويفتش في البيت عن طعامه المفضل من «الأرز باللبن» لا يصطدم بأحد من الناس ويفر فراراً .. ويقال وليس ذلك مؤكداً تماماً أنه يرضع من الماعز القاصية مثله في ذلك مثل - الورل- وحتى أنه يتسلق النخيل وينزل للنهر يقبض السمك- وتحكى- العاجبة

مستطردة:-

حكاية السلطان الجائر

استبدَّ السلطان في قومه استبداداً شديداً ويجري عليهم أحكامه الظالمة.. دون مراجعة وقريباً منه كان عبده المخلص- جرجور- مات السلطان فجأة.. وجاء الناس على صوت دق- النحاس- واجتمعوا في الساحة لاختيار سلطان جديد.. واحتاروا كثيراً في ذلك لأن السلطان لم يكن له ولد يرثه ولا زوجة فقد كان عظيماً وحتى أنه لم تكن له قرابة من إخوة أو أبناء عمومه فكأنه - قُطِع من شجرة- ! وأخيراً اهتدى الناس لرأي.. واتفقوا على أن أول من ينزل ويرِك على رأسه الطائر فهو - السلطان- ويرتضونه.. جرت ثلاث محاولات وكان في كل مرة ينزل الطائر على نفس الشخص مما جعل الناس يضيقون ذرعاً بذلك الاختيار وخاصة أن الشخص هو العبد- جرجور- بذاته.. - جرجور- ظل السلطان- الهالك.. هو دون غيره من الناس وما كان لهم من طريقة إلا الرضاء والتسليم بهذا الأمر.. وسار- جرجور- على نفس منهج سيده السلطان بل أشد وأنكى..! ولما ضاقوا بذلك وأصابهم الخوف والقلق قالوا نذهب لسيد «العبد» الأصلي الذي باعه للسلطان.. سألوا وبحثوا حتى وجدوه وحكوا له عن فعائل- عبده- واستبداده .. عليهم...!

قال لهم الرجل آتي معكم.. فوصلوا وذهب الرجل من فوره لقصر السلطان... وما صدَّق الرجل أن عبده البائس أصبح سلطاناً يأمر وينهي ويقطع الرقاب.. حكى له عن مظالم الناس.. وما كان من -

جرجور– إلا أن قال له .. «دعنا أولاً نخرج من هذا القصر لأحكي لك كل الحكاية..»

ثم حكى الرجل عن الناس قصة «مثلث الرعب» الذي يعانون منه: أولاً السلطان وثانياً التمساح على النهر فلا أحد يجروء أن يكون قريباً من الشاطئ إلا وافترسه – وثالثاً الأسد الذي يقطع الطريق ويحوم حول زرائب الأغنام.. وعجزوا عن صيده.. نقل الرجل كل ذلك للسلطان– جرجور– وقال له خفِّف عنهم قبضتك الحديدية...

أطرق– جرجور– مستمعاً وطلب من «سيده» أن ينام معه الليلة في قصره حتى يسمع بأذنيه فيعرف كيف يصدر أحكامه.. ولأن صيغة الحكم تأتيه جاهزة تتنَّزل عليه عند منتصف الليل وتأتيه كرسالة يحملها له طائر يحدثه ويوحي بها.. وبالفعل فقد أتى الطائر تلك الليلة.. وشدَّد عليه في قوله أن يقوم بتنفيذ الأوامر الصادرة بكل ما أوتي من صلابة دون تباطؤ وضعف.. سمع الرجل ذلك بأذنيه وحكى للناس كل شئ.. وقال « .. أن ما يحكمكم «الطائر وليس العبد».

اتفق الناس على تسليم أمرهم لله... وما عليهم إلا الإخلاص في العبادة والتقرب له بالنوافل فيأتيهم الفرج والتزموا بذلك..

وفي يوم ما نزل الأسد للنهر ليشرب ورآه التمساح وهجم عليه محاولاً جره للمياه العميقة والأسد يحاول أن ينفذ بجلده حتى استطاع أخيراً كسر عنق التمساح وتهشيم رأسه بيده اليسرى، تشجع الناس

وهم يحملون الفؤوس فحاصروا الأسد حتى تم القضاء عليه.. ثم جروا نحو التمساح وفتحوا فمه على سعته ثم نصبوا عوداً بين فكيه الأعلى والأسفل بقدر طول الشخص العادي وتركوه.. ثم قصدوا من فورهم سراي السلطان ليخبروه بزوال خطر الأسد والتمساح.. وما صدقهم – جرجور– فخرج من البوابة مسرعاً فوصل شاطئ النهر... وأظهر تعجبه من اتساع فم التمساح ثم قادته قدماه وقال أعبر من خلال هذه البوابة– يقصد بذلك فم التمساح.. وما أن توغل قليلاً حتى انثني العود وانكسر وإنطبق فم التمساح عليه.. ومات أخيراً كما مات الأسد والتمساح وفرح الناس بخلاصهم من تلك الأخطار الثلاثة..!

والآن فإن الحاجة – العاجبة– تبدو وحيدة في مقرها الجديد تنزوى في مرقدها ولا أحد من الأولاد يقترب منها في المساء إلا بعضاً من الصغار تحتضنهم من حين لآخر تقول لهم بعض الحكايات الصغيرة... والأولاد والبنات موزعون بين المدرسة والحواشات، وفي المساء يتحلَّقون حول الفضائيات الملونة داخل الحيشان المضاءة بالشموس الصغيرة، ثم إنها تفتقد عاداتها القديمة في تناول الوجبات، وافتقدت فطير القمح باللبن .. كوجبة أساسية... تتناولها..

الاستيطان

يأتي المهاجرون للمدائن من الخرطوم وبورتسودان وكسلا وكردفان في العطلات والأعياد.. لا ينقطعون، من يعمل ومن يتلقى العلم والتى تزوجت واستوطنت بعيداً والذي تقاعد بالسن القانونية في المصالح، فالكل يرجع.. وتأتي بعض الأسر في عيد الفطر أو عيد الأضحى... ترجع الأخت تحمل معها هدايا ومواد تموينية، تمكث بين أفراد أسرتها ثم تقفل متزوِّدة بأكياس القمح والتمر والفاكهة.. يتراحمون وصلاً دائماً.. ومن بعد الانتقال والهجرة للموطن الجديد كان قد انسرب ما بينهم من روح التكافل والترابط القديم ودخل التنافس والحساب.. وقال – سيد أحمد– إن ذلك مهما كانت النظرة نحوه فهو يجعل للإنسان مخرجاً وهداية باللجوء والرجوع للتقسيم بالأنصبة الشرعية التي كانت قد أُهْمِلت في الماضي لأن الحقوق كانت مُشاعة بينهم الظاعن والمقيم.. العامل عليها والبعيد المسافر.. فهذه حياة أسرية متسامحة، تسكت الأخت عن حقها ولا تجرؤ بالمطالبة به جهراً ولا تحاسب في الكبيرة والصغيرة.. ودخلت علاقات المدينة والحدود الفاصلة بين الأفراد بحساب المستحق والواجب بعد إعادة التوطين واستلام التعويضات وبرزت الزعامات الجديدة التي كانت مغمورة.. ظهر صوتها وعلا... أولئك الذين كانوا غماراً وحتى ما دون ذلك من السادة الخاملين والمقطوعين .. كانوا من قبل غير مؤثرين.. والجميع هنا اليوم قد

تساووا.. لأن الجميع امتلكوا نفس الأشياء وليس هناك ما يحوجهم للوقوف بين يدي الذين يملكون سطوة وثروة واحتكارية في طلبهم للتسليف.. أولئك الذين هم من طبقة الغني والجاه الموروث..

جاء شهر رمضان وخرجوا لساحة واحدة جمعتهم في لمة كبيرة...اختفت أطباق من الطعام المعروف وشربوا مياهاً غازية ملونة بديلاً عن – الحلومر– فأين اليوم مواده وتجهيزاته ومن وقود الحطب...؟ وتجمعوا لصلاة العيد، الأطفال والرجال والنساء والفتيات الصغار... وخرجت النساء اللاتي بَدَتْ عليهن الصحة والإنتعاش في أجسادهن، وأناقة الذوق في ملبسهن، مما لفت انتباهة– الداية حُجرة... في تطوافها على البيوت ملاحظة الأرامل والمطلقات واليتامى فقد كانت معيشتهن ميسرة في – الحامداب الجديدة..

«حجرة» تلك المرأة الدؤوبة.. درست مع الصبيان في الخلوة على يد الأم– فاطمة بنت الطاهر– ومكثت بين البيت والزراعة والنيل، وهناك المدرسة ذات الصفوف الست.. تجاوزت سن الدراسة النظامية فلماذا لا تجرب حظها وتلتحق مجدداً؟! ولم يبق لامتحان العبور إلا شهرين.. أبدت رغبتها وجمعت المواد ثم حفظت قصائد منهج الأدب وقواعد النحو وأكملت مادة الرياضيات .. وكانت صباح مساء بين الأولاد والبنات تداوم وتثابر بجهدها الذي لا يتوقف وخرجت من قريتها وجلست للامتحان في كريمة وتفوقت في ا لدخول لمرحلة– الثانوية العامة– الصف الأول ثم أكملت الصفين الثاني والثالث بالخرطوم– .. وبعدها

تزوجت برغبتها ثم اتجهت «لدنقلا» وهناك تلقت تدريباً في مدرسة القابلات وتخرجت كأحسن طالبة مثالية... وفضلت أن تعمل بموطنها في الحامداب.. وهي تنتقل من قرية لأخري على ظهر الحمير وتعبر النيل بين الجزائر وتبتعد عن أسرتها تراقب الحالات في منطقة تعوزها الإسعافات الأولية.. ثم خرجت من جزيرة- سفي- تحمل وليدها الثاني على كتفها ولم تعد بسبب من الأسباب..! وتفتقت قريحتها بقول الشعر نظماً في تجربتها العزيزة الغالية.. تتجول ما بين القرية الثانية والثالثة في توليد الأمهات وتلم بمعرفة فحوصات حالات الضعف العام والبول السكري تطوعاً من بعد مهنتها الأصلية تقدم خدماتها في المركز الصحي..!

تحن شوقاً «لأم مريخ».. تخرج منها باكية تودع النخل والمناظر البهيجة الخضراء مع الجروف وقت الأصيل والجداول السائلة والأشجار ثم الجزائر الصغيرة والكبيرة.. وتزهو بالأخلاق والصفات النبيلة المتوارثة لتحل في أرض جديدة كانت يباباً..! فيزداد ترابطهم الاجتماعي أكثر توحداً... واتفقت النساء على التكافل في الوفيات تخرج المرأة بعد أن تقضي واجب العزاء بدفع وتسليم أهل المأتم مبلغ ألفين من الجنيهات ورطلاً واحداً من السكر، وبالمثل في مناسبات الأفراح...! هناك مناطق قريبة وليس النيل بعيداً منهم فيذهبون لقوشابي وقنتي. فتوثقت معاملات جديدة وتجري التجارات وتبادل الخبرات.. ويتداخلون فيما بينهم بديرية وشايقية وكبابيش وهواوير..!

العبور

تدخل إلى مناطق- البديرية- ويبدأ الطريق المعبد فيصل إلى كورتي بعد أن تخطَّت السيارة عقبات «حسينا رتي » وادي عروش، وادي المقدم قبل ذلك.. أكواخ العُربان متناثرة وسط الرمال .. شجيرات السيال والسلم والطندب.. تنمو على الخيران الموسمية التي جفت، تقطع صحراء «بيوضة»، كان «وادي المقدم» في سنوات سابقات يجري مدوياً بجرف في طريقه الأشجار والأنقاض، وحمل ذات يوم من عمق كردفان وعلى زبد خواره لافتة لمدرسة إبتدائية من مدينة- الفولة- دعك من ذلك اليوم الذي قيل فيه أن صاحب - اللوري- كان قد أوقف عربته في عرض الوادي تحت ظل الشجرتين وما عتم أن سمع صوتاً منزراً يأتي من بعيد ولم يجد زمناً كافياً لإخراج العربة بحمولتها من البضاعة الثمينة.. وضاع كل شئ وسارت مع الإندفاع حتى ارتكزت على نتوء قبل إنصباب المياه في النيل..!

وفي باطن الوادي يزرع الهواوير الفول والقمح والخضر ، ري بالآبار الجوفية، ينزل «الحسانية والهواوير» للنيل يأتون من الخلاء الجاف بثرواتهم من إبل وأغنام يتجولون على طول إنحناءة النيل، بيوتهم على الرمال تمتد على شريط الأسفلت قريباً من البديرية.. وفيهم من استوطن منذ زمن قريب من أيام السنوات القاحلة التي ضربت كل السهول والتخوم المطيرة.. معالم الطريق والمدن الصغيرة ودلالات المسميات

النوبية في أم بكول وكرمكول وأرتي موقا ومنصور كتي والباسا، ثم تدخل في المشاريع الأهلية التي تنتشر رقعتها الخضراء ممتدة على وجه الرمال الكاسحة في القرير وعلى سهول وادي المقدم تكون – أمري الجديدة– زراعة وتعميراً يرتحلون من الجزيرة إلى المنطقة التي تقع ما بين أوسلي وكورتي ويهيئونها بالخدمات وهم أكثر عدداً من أهالي الحامداب، يستوطنون في أرض من الأودية الخصبة..

ولاحقاً فإن تلك المناطق خارج التوطين تشق أرضها القنوات وتستصلحها لجذب آلاف من الأسر يدخلون في دورة زراعية على شريط الصحراء.. بالري الانسيابي.. يغني – السقيد– من داخل العربة يأخذ نصه من «حاتم حسن الدابي» بصوت مترع بحساسية مؤتلقة بالأسى المجروح واللسعة النافذة ترسم حياة جديدة مشتهاه..

ما ضاقت سَهر عينيك ❖❖❖ يا طير واحلالي عليك
صباحات الله ليك بَشُوشة ❖❖❖ تَقْضِيها فوق جنحيك
تتحدى الجبال ووحوشها ❖❖❖ عارفة ما بتطول عالِيك
تلقى اللينة والكرموشة ❖❖❖ رزقك يومي ديمه يجيك

«السقيد» هو الجزء المفصص من القصب الحالي السكري – أو – العنكوليب...

ومشروع– أمري الجديدة– من المشاريع الكبرى يرتوي من ترعة رئيسية بواسطة طلمبات ديزل تتفرع منها أربع قنوات فرعية تغطي كل المساحة التي تحتاج للري...

وتضم مدينة «أمري الجديدة» أربع قرى وعلى مسافات متقاربة من طريق – الشريان..

وتبدو من هناك على الضفة الأخرى التلال السوداء وهنا تسرح قطعان الإبل ولاتزال الخيران الجافة تنزل للنيل تسفُّها الرمال.. صخور وحصى ومنخفضات وانحدارات قبل الولوج لأرض الشايقية، وجنائن التمور بحيطانها الطينية القصيرة تبدو شيئاً بهيجاً ومنعشاً وشيئاً فيه عزم وتصميم تقوم به جماعات وأفراد، وتحت التراب المخزون الهائل للمياه في الحوض النوبي الجوفي... «المترات» تنبثق في الخلاء على مشارف تناقسي.

* «قدم إلى تناقسي الشيخ محمد بن عدلان الشايقي الحوشابي.. المشهور بالمجدد حج إلى بيت الله،

وجاور فيه عدداً من السنوات.. ثم عاد فأوقد نار القرآن.. ودرس علوم العربية وأصول الفقه والتصوف.. وكان يبذل النصيحة خالصة لوجه الله ويقولها في وجوه الملوك والحكام ولا تأخذه في الله لومة لائم .. وقد ألَّف واختطَّ كثيراً من الكتب».

تنزلق العربة على الطريق الأسود العريض الناعم فتدخل إلى – صنب– المدينة الأصل والقديمة الراقدة تحت التراب لم يكشف الغطاء عنها بعد.. يحيطها السياج.. ثم هناك عند خور أبودوم.. أطلال للمدينة– مروي الأخري القديمة ثم مروي الحديثة ينتشر عمرانها ولا يتوقف حتى الطريق البعيد تنزل منه الطرق الجديدة فتدخل المدينة إلى السوق ثم

الامتدادات، طرق حديثة تلف المدينة وتجعل لها مداخل عديدة.. النساء يبعن الخضروات على المصاطب.. المتاجر والمطاعم وسوق المدينة الريفي.

غدر المماليك بمحمود شيخ- العدلاناب- وقتلوا الكثير

من حاشيته بعد خداعهم واستضافتهم.. ثم انتشروا بعد ذلك يجمعون الأموال من الناس بغلظة واتجهت أنظارهم لغزو مروي، علم بذلك الشايقية وتجهزوا لهم بفرقة من رجالهم الأشداء وأتوهم عن طريق الصحراء ومن ورائهم وقتلوهم في الخندق وأراحوا.. ثم اضطروا للرجوع..!»

ذهبنا إلى استراحة - مروي- المجهَّزة ثم خرجنا منها واتجهنا لساحة السوق العمومي واتجهنا شرقاً على بعد خطوات قليلة.. وقفنا خارج الزريبة المسيَّجة بالسلك، هنا مقبرة- هربرت جكسون باشا- مخروطية الشكل كالهرم، هذا الذي كان مديراً مشهوراً للمديرية الشمالية في الفترة ما بين ١٩٠٢م و ١٩٢٢.. يحمل نيشان الأمبراطورية البريطانية من درجة فارس ودفن في هذا المكان في ٢٨ يناير ١٩٣١م....»

- وكان أهل حضارة - نبتة- يضعون جسد المتوفي مُسجّى على الأرض مباشرة دون حفرة دفن.. ثم يصبون عليه كتلة مخروطية الشكل ويهال عليه التراب... وفي الأزمنة القريبة جاء كثير من الشذاذ واللصوص ونهبوا ما بداخل تلك المدافن..»

هذه قرية – السفَّاي– وتلك مدينة– نوري الجميلة المزدهرة بيوتها وحدائقها، وفوق الربوة الخرصانية الترابية ترقد مدافن الملوك في جلال.. على الطريق الذي يتلوى. هنا أهم المدافن الملوكية.. اثنان وثلاثون من الملوك والملكات.. أسبلتا و–تهراقا العظيم– في الهرم الكبير.... هذا الذي حكم القطرين لمدة ثلاثة عشر عاماً متواصلات...!

ويصعد الطريق الأسود وتظهر الهضبة الصخرية السوداء المسنونة كأنها حراب... ونخرج من – نوري– المدينة الرائجة التي خرج منها رجال كثيرون تفرقوا ونهضوا بالبلدان.

فصل الاجتياح

ننطلق ما بين الهضاب الصخرية وعلى مشارف الحامداب القديمة. الأرض المتوعرة والتي كانت ساكنة وهادئة فإنها اليوم تموج بحركة الآلات والناس ذوي السحنات المتعددة الذين أتوا من الفجاج العميقة.. وقد أسهم- الشيخ الكبير- بعطائه وتحقق ذلك بمباركته وقد وقف من قبل في إحياء- سد مأرب- فكانت الفكرة التي تحققت وأحياها وأنعشها من غابر الأزمان.. قال وهو ينظر بعيدا.... «تمّ.. تمّ.. الله.. يتمُه...»...

هناك رجال موعودون بالبركات وتتم على أياديهم المعجزات.. القرى التي تنهض بين الصخور واقفة بمبانيها الجالوصية ولن تصلها المياه وبعيدة عن الموقع.. التقاويت.. التكر.. سمعريت.. أرض جرداء وموحشة.. لن يمسها الترحيل.. من هنا فقد دخل الغزاة الأجلاف في شتى الحقب وطأوا الصخور والتراب والزرع واقتربوا من النيل ثم شقوا الصحراء.. لقد دخلوا من هنا.. من هذه البوابات.. «وكان - السردار- في مصر وهو يتهيأ للفتح بانتظار ارتفاع النيل.. فخرج منها في ٨ يوليو ١٨٩٧م بصحبة أركان حربه.. فأتى رأساً إلى - مروي- وجعلها مركزاً له وأخذ يحشد الجيوش إليها..

- وقبل ذلك فإن- السردار- أمر الكابتن - روجمان- أن يذهب لمروي فوصل جزيرة - قنتي- ثم واصل السير إلى - صنب- تجاه - مروي- بتاريخ ٢٦ سبتمبر ١٨٩٦م وتم رفع العلم المصري عليها.. وصعدوا في النيل إلى الكاسنجر عند أول الشلال الرابع ورأووا من بعيد آثار نبته- ونوري.

حامد بن كدنقا وماترك من أثر

جاء الحاج- محمد بن كدنقا بن شايق من أعالي النهر، ترك أولاده بين الضفاف الضيقة والجزائر العديدة.. وتداخلوا مع الرباطاب والجعليين فكونوا مجموعات كبيرة بمزاجها وصبغتها وذاتيتها الشايقية وهم في تجوالهم على طول المنطقة وللحواضر في - كريمة- ومروي- معاملة في البيع والشراء وقضاء الأغراض يزورون فأصبحوا- الزُوَّارة- ولهم خشوم بيوت من القلومة - البهياب- التراعة- الجنكلاب- - الجبراب-.. تعزلهم الطبيعة ويتخلقُّون بسكينة تجنح للصبر وقوة التحمل والتعاضد الجمعي في صد الأخطار، وسمتهم الثقافية والأخلاقية متوحِّدة كأبناء رجل واحد وأسرة واحدة وقرى وجزائر واحدة في جميع أنساقها.. فورثوا من أسلافهم من الحقب البعيدة جميل الصفات وكريم المعاملات والطبائع من الشجاعة والكرم والوداعة وإكرام الضيف وحب العدل والصفح عند الزلات وحل القضايا فيما بينهم حلاً تقبله جميع الأطراف فلا يذهبون للمحاكم.. ويقال إنه قديماً كان في عرفهم أنه إذا صدر أمر القتل بحق أحدهم من الرعية.. ينفد أمر «الملك» على الجاني دون سؤال أو إبطاء.. من حيث لا يمكنه الهرب وأمه تراقب ذلك فتذعن وتسلم أمرها راضية بالمكتوب، ولا تدع ولدها فتقيده بوثاق متين وتمنعه من الفرار.. حتى لا يجلب لنفسه وأهله وذريته العار... وهكذا فإنه يمكن القول أن «حامد كدنقا» عندما طاب له المقام بتلك النواحي ترك في

ذريته كل ذلك لأنه ببساطة مازاد شيئاً إلا إكماله لمكارم الأخلاق النبيلة ثم جعل لها مذاقاً روحياً ومرجعياً تنامى بعد ذلك بسبب الوعي والاستنارة، هجرة في طلب العلم والشغل والتجارات في البلدات البعيدة.. ومن صفات الأسلاف القدماء احترام النساء المسنات والخضوع لهن في المسائل التي تحتاج لحكمة ودراية.. وكانوا بذاتهم رجالاً كبار الأجسام وصورهم البادية حسنة ويمتد العمر بهم طويلاً، وحدِّث ولا حرج عن نسائهم الجميلات القمحيات، ولباسهم يتكون من جلود الأسد والنمر.. ثم أنه والي عهد قريب وسيط من الأزمنة الحديثة المتأخرة فإن البساطة والكفاف تدعو الرجل أن يلبس «الشمارة» أسفلاً وصدره عار... يواجه أعتى العواصف في الجو الحار الكاتم.. وكذلك امرأته التي تلبس- الرهط- بسيوره الدقيقة المزينة وصدرها عارٍ وعندما تتزوج: فإنها تلف حول جسدها- القرقاب- ... ! ومن بعد كان «القميص يتسلحون بالنشاب والفؤوس والحراب والنبابيت والدرق، يحرسون أبواب النيل المتوعرة... وقوة القبيلة في بأسها عند الحرب تجدهم مغاوير .. يدافعون بقوة وما يميزهم عن غيرهم شلوخهم البائنة على الخدين تميزاً وجمالاً وزينة، وهي أفقية الشكل والرسم عند معظمهم وقد اتخذت شكلاً رأسياً متوازياً آخر بأخذهم ذلك من - المحس والدناقلة- وقد تركوا ذلك في السنوات الأخيرة... وتركوا خدود النساء على خلقتها الأولى - سادة- تلصف باللمعان.. وفي كل الحالات فإن الشعراء يتغزلون في صفحة وجوههن يهيمون بجمال نسائهن كأن لم يخلق غيرهن في البلاد...

شلخك بِحور السِّيل

وجلدك تِريعة الصِيف

ومنك يقْيف الكيفْ

وهي المُشتهاة ومستحيلة تكون أميرة محميّة في قصرها...

تستاهَل سَرايا وفُوقا كورنيش

وتستاهل حرس ماسِك الكلابيش

شِليخاتِك كتابة الما خطًا درويش

تتلامع تقول سَاوالا أُورنيش

أتْبِنى قلبي عندك.. أنا عندي ما فيش

وكان «حامد» رجلاً يُشار له. علمٌ في رأسه نار يقود أهله بالحكمة والإخاء.. فأصبح ملكاً عليهم وتم دفنه قريباً من – مروي– .. ذاك ابن شايق عظم الظهر...!

تجليات المكان

المدينة البيضاء المتوهجة ليل نهار فوق على التل الصخري راكزة. حديثة العمران والتجهيزات والتقسيمات السكنية إلى وحدات ودرجات.. ومباني الأقسام الإدارية الضيافة والاستراحة وقاعة المؤتمرات والنادي والمسجد والطرق الداخلية معبدَّة ومتصلة تتخللها المستطيلات والمنتزهات الخضراء... مساكن مكتفية بإحتياجاتها من أثاث وعدة معيشة.. محطة الكهرباء والمياه والصرف الصحي ترقد قرية- حميدان- أسفل المدينة يميناً وأنت صاعد على الطريق.. بنفس سمتها القديم ثابتة ومستقرة كالعهد بها نخيلها وبيوتها الجالوصية.. ثم جروفها حتى النيل يمر فوقها الطريق صاعداً أو هابطاً...

ننزل على الطريق ثم نرتقي الدكة ونشرف على محور السد والقرى تحتنا تبدو أطلالاً وأنقاضاً وتراباً...

وقف الروائي- الطيب صالح- يتأمل الأفق القريب والبعيد تحت الحر اللافح وكان شوقه عظيماً نحو - كرمكول- وإلى الراقدين تحت ثراها- عائشة ومحمد صالح وإلى الأحياء منهم من جميع البديرية والشايقية والهواوير وكافة العربان قال لنا : «.. هذا العمل عندما يكتمل سيكون أهم ما أنجز في السودان ويعادل في أهميته قناة - جونقلي- لو تم إنشاؤها وستتغير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة الشمال...!» والسودان كله

الجندل الرابع والصخور الناتئة يتسرب الماء بين أبوابها فتعوق مساره الطويل ويهرب متلوِّياً هنا وهناك، يصنع الجزائر الكبيرة والصغيرة فيحتلها من بعد أولاد حامد صالح ولد كندقا- المشهور ذكره.. تلك كانت جزيرة- مروي- تقابلها بلدة- أم دويمي- حيث قامت عليها مكاتب إدارة جسم السد والمساكن العمالية والإدارات الملحقة..

النيل هنا يجري مختنقاً ينسرب عبر الأبواب البعيدة على طول إنحناءته القوسية.. تلك المنطقة المعزولة بين الشلال الرابع والخامس.. يتوعَّر فيها النيل بالأحجار فيتدفق الماء عبر أبوابها.. وفي العصور الوسطى حدث أن:

«هرب لها الملك- داؤود- ملك- دنقلا- وقصدها وقبض عليه ملك- الأبواب- تحوطاً على أمنه فأرسله للسلطان المملوكي أسيراً.. وأعتقله بالقلعة حتى مات أسيراً في السجن.. ثم تمرد الشعب- النوبي- على الملك- شمامون- بسبب معاملته القاسية.. ولم يوف بوعده للسلطان، هرب «شمامون» لداخل البلاد.. خوفاً من بطش الجيوش المملوكية.. وصعد على النيل حتى وصل إلى موضع قريب من جزيرة - مقرات- خاف من تلك المراكب والحراريق.. ولم يسكتوا عليه فوجهت له «مصر» ثلاث حملات حربية لتأديبه...

وكانت العلاقات سيئة بين ملك المقرة في دنقلا والأبواب وملوكها.. فالعلاقات متوترة دوماً وعدائية بسبب المنافسات.. وفي الحملة الثالثة أرسل - قلاوون- جيشاً كبيراً تحت قيادة الأمير- عزالدين الأفرام

أبيك- ويتبع ذلك الجيش عدد من الحراريق والمراكب الكبار والصغار لحمل الأزواد - والزر دخانه- فخرج المشايخ والأعيان من بلادهم على طول طريق مسار الجيش فأخذوا الأمان والاستقرار.

وبعدها توجه الملك لجزيرة وسط «بحر النيل» ومن معه بعيداً عن دنقلا... وزحف قليلاً الأمير عزالدين ومن معه ولم تصحبهم حراقة ولا مراكب لتوعر البحر بالأحجار في الشلال الرابع أعلى كريمة.. وفي البر فإن الأرض كانت كثيفة الأشجار... يجوس وتتجول داخلها الأفيلة والقرود والنسانيس والمرافعين...!

هرب - شامون- إلى مكان مجهول والقول في ذلك إما أن يكون قتل أو مات ضالاً.. »

أرتال من البشر يجيئون ويعملون كالنمل.. الرافعات ومصنع الخلط الخرصاني.. تروح وتجئ القلابات.. وتنقل الشاحنات الطويلة جوالات الأسمنت الضخمة بالأطنان.. فسيكتمل السد ويتم افتتاحه على ميقات محدد بالأيام والشهور والسنوات فالعد التنازلي يبدأ والأيام تتناقص فمتى يأتي يوم باكر...؟!

العمق بعيد عن سطح الأرض وانشقت جزيرة- مروي- بالحفريات .. والكرينات- ترفع وتنزل الخرصانة في منطقة المفيض لتبني الحوائط الخرصانية الذي تخرج منه المياه الزائدة عبر الأبواب في موسم الفيضان والدميرة عبر الأعمدة الخرصانية الضخمة فتتدفق المياه الهادرة النازلة تأتي من بعيد والنهر ينساب شاهداً على كل أحداث تلك

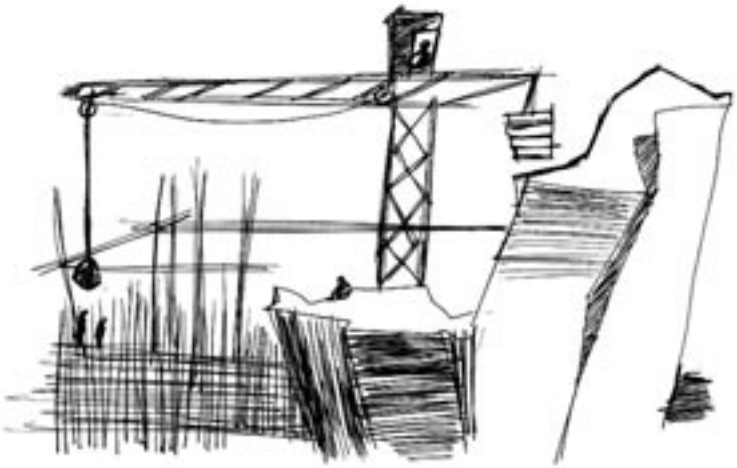

المنطقة – فلا يشيخ، يتبركون بمائه العذب السلسبيل.. هنا تنفتح الأبواب على المستقبل.. كان القدماء يستشرفون ويقرأون علامات الزمن الآتي المجهول في الطي فيتراءا لهم ذلك ويقولون هنا مكان إقامة السد..! يستعجبون من جسم ذلك الحيوان الضخم الذي يمسك الماء ويولِّد الشرر.. تتوالى التفجيرات العنيفة وتهرب التماسيح.. وتنشط الجرارات والآليات في ردم السدود الترابية ويتغير مجرى النيل.. وتعمل الجرارات والآليات الضخمة في ردم السدود الترابية الضخمة بين جزيرتي– مروي– وقرية– أم دويمي– وأصبحت مدينة للعمال.. نقلوا لها الطوب والحجارة وأقاموا فيها ويخرج التيار الكهربائي خطوطاً ضخمة من التوربينات بطاقة كلية ١٢٥٠ ميقاواط ويكتمل في السنة الثامنة من الألفية الثانية ويكهرب كل شبر في البلاد وتمتدأ ذرعة الطويلة للشمال والشرق والوسط... وجاء خبراء وعلماء ثم عمالة محلية من– الشايقية والمناصير... ونحرت الحاجة المتزايدة للطوب المحروق الشواطئ الطينية الناتئة وأصبحت كمائن لم تكف، فجاؤا بالطوب الأحمر من أرياف الخرطوم.. ! وتم إنشاء البيوت الجديدة بعيدا في الأرض الربداء بديلاً للبيوت الجالوصية المتكئة على سفح الصخور وعاشوا فيها مئات السنوات.. وشربوا من بعد النيل من الآبار الجوفية وسكنوا تلك البيوت المستحدثة بسقوفها العالية وعرفوا الأبواب المغلقة بأقفال وفي محور السد على الضفة اليسرى تتناثر على تعاريج النهر وصخوره البائنة وشريطه المخضر– حميدان – عبير– والهايولا– وأم بليليك– والحوش– والحلة– والجبل ومن ثم جزيرة مروي. وعلى الضفة اليمنى– الكاسنجر–

والعقبة- والكوع- والسدر- وحسان- وكبر عوينة- وأب سليم- وقرشي- وحوض ودبشارة- وأم دويمي- ووادي طويرة- والليشو- والقطين- وأم مريخ- وكونوا مجموعات من الأُسر الكبيرة..

وكان قد بدأ الصب الخرصاني في أواخر شهر رمضان ١٤٢٥هـ على جسم السد ويتم ذلك في طبقات مختلفة... يجلبون له الحجر الصلد المتماسك يُختار من أجود أنواع الصخور في - أم دويمي- لإشباع نهم الخلاطات المركزية والكسارات.. ولم تتوقف الشاحنات الكبيرة وخطوط نقل السكة حديد في حمل كميات كبيرة من الحديد والأسمنت...

ويستمر العمل، يتواصل ليل نهار إلى نوفمبر من السنة الخامسة في الألفية الجديدة ويرجع جريان النيل لمجراه الأيسر فيصل لمستوى جبل - كلقيلي- في ارتفاعه أو دون ذلك قليلاً.. وتمتد البحيرة العظيمة وتأتي على آثار كل الطبيعة التي كانت بشجرها وزرعها وبيوتها وصخورها وجزائرها الصغيرة التي صنعها النهر بترسباته على الصخور البركانية وفيضاناته الجامحة ثم ينسحب ويضمر قليلاً قليلاً حتى يعيد هجماته واكتساحه ويحوِّل الطين كما يشاء بين الضفاف وتغمر المياه وتنحبس خلف الحائط ولا تعرف ما سكب من عرق في إحياء الأرض القاسية التي أتت بالنخيل والمغروسات بين الدميرة وفصل الشتاء.. حتى - المناصير- فإنهم لن يسلموا من الزحف المائي المرتقب يغطيهم ويزيد المنسوب قليلاً في - أبي حمد- حاضرة الرباطاب التي وصلها - العنج- من الصحراء وإلى الأبواب...

وأرسل المماليك غزوة على – كرنبس ملك دنقلا الذي توجه مع أخيه– أبرام... منسحباً كالعادة لجهة الأبواب.. فقبض عليهما وأرسلا للأبواب السلطانية تحت الاحتياط .. واعتقلا وملك– عبدالله برشمبو– دنقلا– ثم استقر ملكه.. وتكدست هنا أعداد كبيرة من السكان المسيحيين فبنوا القلاع والتحصينات... معتمدين على وسائل الدفاع الطبيعية من جزر وشلالات حتى أواخر الدولة المسيحية.. ولبثوا على ذلك في صدهم لانتهاكات العنج وقوة المماليك وخطرهم الحقيقي والمتكرر..

ويتصف مجتمعهم ذاك بالانتظام والاستقرار والازدهار.. وهذا واضح من كثرة تلك الكنائس والمستوطنات المسكونة بعددية من الكثافة السكانية من تكرار لجوء المسيحيين من – دنقلا– وانتشروا على الجزائر والضفاف.

وتمتاز منطقة – الحامداب– أن تربتها تحتفظ ببعض الأجساد من التحلل.. وقد أعتنق سكانها المسيحية في القرن السادس الميلادي– منطقة – الحراز– وكان اتجاه الدفن المسيحي للجثة يرقد الرأس في الغرب وتوضع الأرجل في اتجاه الشرق والأيدي في منطقة الحوض على شكل صليب.. هذا في عموم منطقة الشلال الرابع توجد المومياءات المحنَّطة طبيعياً ملفوفة بأكفان الكتان ومربوطة بالحبال في الأعلى والوسط وكذلك الأرجل...!

وصل المصريون من ورشة الشجرة بالري المصري في منتصف

الأربعينات من القرن الماضي وكان معهم المهندس السوداني – علي بدرالدين– وضعوا علامات على جبل – كلقيلي– وكانت الشاعرة سليطة اللسان واللاذعة– مسك اليمن– حيَّة ترزق .. وتصف نفسها بالباشا وأهلها دونها فهم عسكرها يخافون من قرصاتها وهجائها وتمدح الكرام من الرجال..!

أب رَعد سيل الكَرْبكَان

جاني خَامْ المعِز والضان

وشايِل رزِمة الشيك أبْ حُصان

عندما وصل المصريون للمنطقة أقال– الملك فاروق الأول– وزارة – مصطفى النحاس– وأسندها إلى أحمد نجيب الهلالي وهو سياسي مستقل.. وكانت الأحزاب السودانية تتفاوض في القاهرة وأراد الهلالي أن يحدد معها موعداً لتقرير المصير مقابل أن تقبل مقدماً ومؤقتاً سيادة التاج المصري على البلاد. وتلازم ذلك مع صدور قانون تأسيس المجلس الاستشاري لشمال السودان من قبل الحاكم العام– هدلستون.

وأرادوا توسيع الرقعة الزراعية وكسر حدة الفيضانات العالية فوضعوا بذلك خطتهم بقيام السد بين مصر والسودان جنوب– أسوان– في منطقة الشلال الرابع.. وأرادوا التنفيذ بدءاً في منتصف النصف الثاني من القرن الماضي.. وكانت تلك العراقيل بعد ذهاب– فاروق الأول– ومجيئ الثورة وما حدث من استقطاب حتى كان التمويل بقيام السد في داخل الأراضي المصرية «.. وقالوا حنبني السَّد..» وعمل مع

المصريين كعمال مرافقون من بعض أهالي الحامداب وكانت- مسك اليمن- في - كلقيلي- معاصره لذلك الحدث وكذلك - جمال بنت مكاسر على - ذات الأثر الكبير والحاضر بين قومها.. والتقت امرأتان هاجرتا في الفوجين الأول والثاني - أم الحسن وأمونة- تعانقتا وبكَتَا.. وما انقطع التواصل بين - الحامداب القديمة والجديدة... وكان بكاء- أم الحسن- مترعاً بالذكريات والحنين الممتد وهي تنظر تحتها إلى الحفرة العميقة العريضة.. وقالت : «هناك كان بيتنا ونخلاتنا أعرف ذلك تماماً بقلبي وليس عيني..!».

- وأم الحسن- لاتزال في تمام عافيتها على صحتها البادية وحسنها المُعتَّق الملحوظ وكانت عبلاء ونجلاء صفراء اللون.. ذات طول وحول.. ويقال إنه يندر أن يكون لها شبيهٌ في المنطقة.. وعلى خديها فصود وشلوخ أربعة على غير العادة وذلك بسبب استدارة وجهها واكتنازه فأضفى عليها ذلك تميزاً مع استدارة شفتها السفلى ذات التكوير والدسامة ولمعة تذويقها الأخضر الموشوم... ومن تاريخها المشهود في ذلك أن كثرة من الشعراء سمعوا ورأوا ذلك خلسة أو بالنقل ونتج عن ذلك مخلفات من الأدبيات ذات التنوُع والثراء.. وعلى قدر مكانة أهلها وزوجها الجديد السعيد فقد كان زواجها لائقاً بها تماماً من حيث كثرة المعازيم الذين أتوا من قرى الضفتين والجزائر الصغيرة وكذلك فقد تصادف ذلك مع مجئ أعداد من المهاجرين العاملين في مصر.. ذكر زوجها فيما بعد أنه كان بصدد إرسال برقية من المديرية في - مروي-

لسراي عابدين بالقاهرة- تذكرة وتهنئة للملك الذي توافق زواجه من- ناريمان- مع زيجته هنا باليوم والشهر في - الحامداب- وكان ذلك سهلاً وميسوراً برد التهنئة بعشر أمثالها من المراسم الملكية..!!

كان الشعراء والفنانون يكتمون اللوعة والجوى ولا يخرجون إلا نظماً ونغماً يبقى للتاريخ.. وهم يرمضون جراحاتهم الغائرة....

وكأنَّ زواج- أم الحسن- كان نهاية لتلك الفترة بطبيعتها الموروثة من العوائد الغنية والرضا والتمهل في استهلاك الزمن وامتصاص متعته بكل أريحية ورحابة دون تعقيد وعجلة، والزمن مديد والخير موجود والمرض قليل ومحدَّد بصفاته وأعراضه البائنة ثم إن العمر كان طويلاً وأشواطه تمشيها بكل قناعة ورضا.. لأن النفوس عامرة بالصلاح والخيرات.. وهكذا يقول- الكبار- منهم في أقوال مكرورة لا تنتهي..! وكان الغرام والتشبيب عفيفاً ومتسامياً.. دون غوايات..!

جاء التمدين الحديث والعوائد الجديدة فجبَّت ما قبلها واقتحمت معاقلهم بين الصحراء والنيل والصخور..!

كان الاهتمام بزينة الجسم وتشكيله وتنميته أمراً بالغ الحيوية لدى النساء الكبار يحرصن عليه مع بناتهن ويشرفن على ذلك إشرافاً مباشراً..

جلست- أم الحسن- على «النُطع» في «حفرة الدخان» وخرجت للفضاءات بعد شهر كعروس مجلوَّة من «كجرتها» المسقوفة بجريد

النخل المتشكل بالألوان الفاقعة.. ثم كانت بعد ذلك تلك الجلسة حضرها لفيف من النساء الجيران والأهل.. كن يشجعنها على عبور هذا الطقس...

أحضرن- إبر من الشوك- ثم صبغة السعف النيلية الخضراء .. امتدت شفتها السفلى المتكورة. وبدأن بوخزها وخزاً متتابعاً والدم ينبع.. وهن يوقعن تنغيماً..!

دَقْ الشوك شِنْ بسوي

للبت أُم فاطراً بِضوِّي

دُقولا .. دوقولا

بت الراجل أبْ شُورة

كان الوشم في حالاته المتعددة يعطي خصوصية جمالية مقبولة يتفرَّدْنَ بها على مجموعات أخرى.. يتضح ذلك فيما تراكم من أدبيات قديمة اندثرت على مر الأجيال لعوامل اجتماعية وثقافية انفتاحية ... يقول - عبدالفتاح- مع التسليم بحلاوة وعذوبة لوحة الوجه والشفاه الملونة ينابيع وزرعاً أخضر.. فإنها بالمقابل تفقد حساسيتها وتدرك ذلك جيداً ولكنها لا تقول..!

وأرى ذلك بوضوح كامل وأغرق في تلك التفاصيل المرويَّة عن تلك الأجيال وأتمثلها بحواسي مجتمعة بحاسة شم تلتقط ذلك العطر القوى المُسكِّر المُحرِّض المركب وبعيني وبقلبي وإدراكاتي واستبطاناتي الخفية المتوارثة من الأحقاب السحيقة وتصل بي حالة الجذب لمنتهاها

وذروتها وأنا أشهد.. – أم الحسن– مكَّملة ومحفَّلة مزدانة وخلاَّبة.. على أنفها القشة الذهبية ويتدلى – العكش– من أذنيها وعلى جيدها المصبوب كأعمدة الرخام– التيلة الذهبية– المفصلة بالخرز الأبيض والأسود والخرزة والحريرة تتدلّى من رسغها حمراء تطرد عنها عين الشيطان....!

ويأتي أصحاب – العاشق القديم– المرابط كالديدبان يتعاطفون معه يخففون عليه أمره المكتوم الذي لم يعلنه إلا لهم.. وضاقت عليه نفسه وهو يتصبَّر يبتلع الجمر.. ومنذ الصباح كان قد بدأ طقس المواساة والسلوان فأقاموا له – الكرنق– وكان ينوح بينهم «كالقماري..»

قِصيبة التَقْنت المزروعة وسط البُورة
لا طير لا حمام لا قِمْري بيَّض فوقا
مسُوحة الصندلية المحلبية بَرودا
وين الكفلو عالي ومن وِسط مَضْمورا
وين المن صديرو الصندلية تفور
عود الخيزران في قوما قايمة رقِيقة
تجَهَرْ بالنهار وبالليل تضوِّي فريقا
إيدك جدلة الخبطت ورا المِزيكا
زي جيش الإنجليز ما بتدِركْولو حقيقة

ومع هجرة النص من ناحية لأخرى تدخل التعديلات الطفيفة

يا فتيل ما يقوما الأصيل

الشلوخ درب اللُتمبيل
والرقيبة قزازة عصير
والزراق فوقا تقول حرير
ألبسي الستيان تعالى
وأرقصي في توب التَّلالي

والسَّد يقع في موقع طبيعي مخنوق بين التلال.. تتوالى عملية الصب بالخوازيق على جزيرة مروي بطول خمسمائة متر وهي مرحلة الأساسات بعد إزالة الطبقة الرملية وتنحبس المياه وتنقص عن قمة الجبل بمقدار عشرة أمتار، فأين هي «أم دويم» التي زالت بملامحها الطينية ومعها قرى غرب النيل من السافل والصعيد: الحوش- وعبدالسيد- وأم عطيرين- والحلة- وجبل كلقيلي- والحراز- والقناقيد- والكير- وكنيشات- والعفين؟ ومن الناحية الشرقية: الرحاب- وحماد- والسواقي- ووادي طويرة- وعبدالرحيم- والقطين- ودم التور- وحجر الظراط- والخزينة- وهجيليجة- وكرجكولي- وحجر صايل.. ولن يحدث أي تسرب من خلال الحائط الخرصاني وقد تم كل شئ بمواصفات محددة وسدود ركامية وردميات ...

ثم يأتي الفوج الأخير من-الحامداب- من جزيرتي أولي وسفِّي... وكل تلك القرى بمسمياتها المتعددة متجاورة ومتلاصقة قد يفصل بينها خور أو صخور ووجهتها نحو النيل تنتقل بين تكويناتها العديدة المتحدة في مزاجها وخصوصيتها ولا تدرك فرقا. وقديماً كان يجوبها كلها

ملاحظ الصحة ونائبه والعامل.. يكشف على «أزيار السبيل» غير المغطاة.. يدلق ماءها أو يسوطها بيده يمنع توالد البعوض ويعاين في جداول الماء المتقطعة يدلق عليها – الزفت– فتطفوا الطبقة السوداء على وجه الماء الراكد.. ويرشد الناس بذلك منبهاً في تطوافه.. يأتي– مفتش المركز– وأيضاً يأتي في القافلة– المساعد البيطري... أومن ينوب عنهم يفتشون على السواقي التي تدور بها الأبقار ترفع الماء من النيل قبل مجيئ– الطلمبات– يشدد المسؤول على أن يكون هناك الطريق الزراعي تسير عليه الأبقار والسواقي والدواب ثم درب – الباشا– ويرصون الحجارة نواطير على حدود الساقية ويطلونها بالجير الأبيض يرسم تلك الدروب وحدود السواقي– المسَّاح– ويبرز لافتة واضحة بنمرة الساقية وكانت العقوبة شديدة على من يخالف ذلك النظام.. يحل العمدة بعض النزاعات الصغيرة ونادراً ما يحدث تحويلها للمركز.. وقد يشتكي أحد من غمار الناس العمدة للمفتش فيقف الاثنان أمامه ليفصل بينهما مواجهة وكل منهما يأتي بحجته وصدق بيانه.. وقد يستغرق النظر في النزاع لمدة لا تزيد عن الثلاثة أيام من تاريخه.. ويرفع – العمدة– تقريراً شهرياً عن حال المنطقة في نواحي الأمن والصحة والزراعة وما يطرأ بعد ذلك !! في عهد الحكم الثنائي حصد وباء– الهيضة– أب شلة– أرواح أعداد من السكان وتم حصار الوباء بالحجر الصحي فانقشع.. وفي الحالات المستعصية والتي لا تجدي معها الأدوية المحلية فلابد من كريمة أو مروي ولو طالت المشقة...

ارتحلت سواقي الضفة الغربية من الساقية ٢٢ إلى ٣٦ وسواقي الضفة الشرقية من ١إلى ٣٥ وأصبحت أرضاً مندرسة وخراباً.. وكانت هناك على الضفة شجرة نخل وحيدة يبدو أن- الهدَّام- كان نشيطاً في نحر الطين فظهرت جذورها تحاول أن تقاوم السقوط.. وجبل - الدويخري- سيغيب وتغمره المياه على الضفة الشرقية، والنيل السرمدي لا يهمه الأمر في شئ ينحدر من أعالي جبل الفراديس..

اختفت أنوار «الأولياء الصالحين» وربما لن تفارقهم تذهب معهم لتشلع بنورها الأخضر هناك ترقب استقرارهم يغرسون الأشجار العالية من جديد.. فأين - جبل كلقيلي- الشامخ.. يحاكي- جبال توتيل -...؟

وقد ظهر بين الشباب الصغار وقبل التهجير نية الارتباط الأسري فتمت زيجات عديدة وسريعة دون تعقيد وبتبسيط شديد.. وتفسير ذلك محاولة اكتساب حقوق في الأرض الجديدة تأميناً لمستقبل واعد... قال بعضهم تلك انتهازية ولن تصمد تلك الزيجات الطائشة، وما حدث بعد ذلك فإنه كان عكس كل التوقعات فقد نشأت أسر جديدة مستقرة...! «فعروس» اليوم ليست «كعروس الأمس» يأتون لها بثياب - الشاش- والجلاليب الملونة وحذاء- الشبط- ومن الذهب - المطرق- ومن الفضة «سوار الخلصان».. يأتي بالمصاغ في وقته أو في زمن لاحق ولا ترد بعد ذلك إن حدث الفراق والطلاق...

وكان «العريس» في وقتها وكما يصفه الرجال كبار السن.. فيقولون «ذلك الزمن الجميل الذي مضى» لا يخرج «العريس» من بيته يلبس

قميصه المدهون لمدة خمسة عشريوماً يعيش حياة رغدة ومتبطلة، يأتي له الأحباب بـ« مد السوط» الذي يكون في العرف «صَرٌ» مبلغ من المال تعاضداً وإسهاماً من الناس وعوناً ومشاركة للعريس.. وتأتي «العروس» بعد ذلك تفك العقد العديدة المصرورة على الثوب تجمع المال وتغسل الثوب المدهون وتستقبل بعد ذلك هي وزوجها الحياة بهمة عالية..!

وأتى الآثاريون من بعض دول أوربا الشرقية خاصة ينبشون التراب ويزيحون الحجارة ويصعدون وينزلون بين الحجارة والصحراء والجزائر في عِزْ فصل الشتاء الجاف ورياحه الشمالية.. وتمتاز منطقة – كريمة– باجتماع كل آثار الفترات المتعاقبة.. ووجدوا في جبانات عهد – كرمة– رجالاً عماليق يرقدون مقرفصين على جنوبهم وتبدو أطرافهم وسيقانهم طويلة وتغمر مياه البحيرة الممتدة بعمق طولي ١٧٥ ك.م جنوب السد.. تلك الفترات البعيدة وهناك على السد وفي جسمه أجهزة الرصد والقياس المخصصة لانسراب المياه أو الزلازل..

وستمتلئ البحيرة بالسمك الكبير والصغير ويأتي ناس من بعيد يحبون الصيد وهم مرتبطون بالأنهار.. غرباء على المنطقة.. يجهزون لهم مستعمرات صغيرة قبل أن يفكر غيرهم بقيام معامل الحفظ والتجفيف.. والتعليب.. تنسرب المياه الجوفية إلى جوف الصحراء المتاخمة ويحدث تغيير مناخي واضح في الجو والغطاء النباتي.. دعك عن ري الطلمبات العاملة الكهربائية في شق القنوات الإنسيابية ووقف عدوان الرمال.

تجليات الزمان

خرجنا من استراحة المدينة السكنية بعد وجبة الإفطار .. تلك المدينة البيضاء كالنهار.. وكُنا قد بتنا تحت مكيفاتها المنعشة، وارتقينا دكة المنصة الدائرية ونظرنا تحتنا لموقع السد وخلية النحل.. أخذنا دورة ثم انحدرنا اسفل وعبرنا فوق «الجسر العائم» الواصل بين الضفتين وهو الأول من نوعه شمالاً بعد «قنطرة شمبات» حتى وادي حلفا القديمة حيث كانت على الضفة اليمنى والآليات والمخازن والمكاتب.. يطفو «الجسر» يتأرجح مستوياً على سطح الماء يتحمل ثقل العبور والنقل بطاقة مائة طن تحت كل الظروف وحتى في زمن الفيضان، تم تركيب وحداته في مدى لم يتجاوز الثماني ساعات وكذلك فإنه يمكن فك تلك الوحدات في نفس الزمن..!

من تلك الجهات انتقلت المعدات الثقيلة عبر خطوط السكة الحديد من ميناء بورتسودان لمحطة- أم رهو- وبان الكاسنجر في موقع السد..عبرنا ودخلنا الاستراحة.. مساكن المهندسين.. ثم تناولنا وجبات جاهزة خفيفة في البوفية ثم شربنا مياهاً مثلجة.. أخذنا بعض الزجاجات معنا داخل السيارة... ثم سلكنا الطريق إلى «كريمة» ينزلق الطريق المسفلت ويتراءى هناك جبل- العقدي- ونمر بالكاسنجر- بحري ثم قبلي وبلدات السويقات وأبوكوع ونشأ قريباً من ذلك - أولاد جابر- الركابية درسوا العلوم الدينية.

والدهم – ابراهيم البولاد بن جابر بن عون ابن سليم بن رباط إبن غلام الله ولد بترنج بأرض الشايقية شمال «نوري» دخل مصر وتفقه على يد سيدي الشيخ محمد البنوفري وأخذ عليه الفقه والأصول والنحو وهو أول من درس الخليل ببلاد الفونج وشدت إليه الرحال، وسبب عظمة أولاد جابر دعوة صالحة من أمهم – صافية– حيث دعت لهم قائلة « .... ربنا اجعلكم يا وليداتي أوتاداً في الأرض.. فسمعت – قائلاً– يقول في الهواء– آمين، ثم إن أباهم – جابر – دعا لهم بقريحة صادقة فجعل الله البركة فيهم وأحيا بهم الدين.

يدور الطريق ويذهب– لجبل البركل– الذي يظهر بعيداً يعلو هناك فوق بلدة– كريمة– وهي مركز الإنتاج الزراعي والبستاني وأكبر سوق للتمر على نطاق القطر.. وفي – الكاسنجر– المادح الورع– حاج الماحي بن محمد– والذي نزحت أسرته «الجعلية المسلمابية» من «العقيدة» وتقع غرب – الكتياب– استقر هنا وشاع ذكره... وأتى له نفرمن الناس في – الحامداب– الذين ضاقوا ذرعاً من هجمات التماسيح وضررها الكبير على أولادهم ونسائهم.. وقفوا عند باب «خلوته » فعلم بهم الشيخ وقالوا« قد أتاك الزوارة».. ورفع دعواته المباركات متوسلاً لربه بنجدة أولياء الله وعباده الصالحين.. مثل الشيخ الوراق في أمري

يا وراق جَنْ حوباتك

وفي التِمساح بَيّن آياتك

خلو يصوب من بَلداتك

ولا يتمسخَر في زوراتك

« ... طويت سجوف الزمن السحيق متجلياً حتى نفذت لتلك الأزمان.. فهل النهر هو النهر؟ ذلك النهر لا يصيبه الوهن يشق مجراه بين الصخور ويأتي متحدِّراً بجذالته المطلقة ما بين الهضاب والفلوات، يكون جزائر الرمل والطين يتحول في الغطاء النباتي الذي كان كثيفاً ملتفاً بشجره الضخم الغليظ، وما بين الذاكرة والحلم أجنح فيدور بي الزمن فأصبح ذرة، ثم أتخلقَّ من جديد في مناجاة متاخمة ومعاصرة في الزمن الأول.. ثم بان لنا – القائد العبقري– وسرنا في ركبه نسمع ونري ونكتب ذلك لحظة بلحظة ويوماً بعد آخر حتى بلغنا مقصدنا، وانطبعت في ذاكرتنا كل تلك المشاهد والأصوات بين قعقعة السلاح ودبيب الأقدام المفلطحة القوية ورغائب النفوس في تساميها، ننحدر مع النيل في رحلة طويلة ما بين الضفاف والبر الذي لم يكن صحراوياً بهذه الصورة، أتانا رجال من الجزائر ولحقوا بنا... ونحن خلف الملك الملهم المنتصر دائما.... بذاته وصفاته ولحمه ودمه.. وفوق ذلك فإنه «المقدَّس المبجَّل»

« .... وصلت بنا السيارة للمعبد الملوكي عند سفح جبل – البركل– حيث تلامست الحضارة الفرعونية والحضارة المروية– ويتم في هذا المكان الطاهر تتويج الملوك– في معبد «آمون الكبير»..»

وتبدو الرسومات على الحوائط... غزا «حور محب» آخر ملوك الدولة المصرية النوبة ورجع منتصراً بالغنائم والأسرى فقد أجاب «الأله آمون رع» دعوته حتى انتصر.

وبنى «أمنحتب الثالث» هيكلاً في العاصمة «نبتة» فوضع أمامه صفين من «الكباش» الرابضة على هيئة أبي الهول فتربع الملك- كشتا- على عرش- نبته ثم جاء من بعد ولده- بعانخي- تلك الشخصية الحربية الفذة الذي امتدت رقعة دولته ومد نفوذها من النيل الأزرق حتى الدلتا عند مصب النيل ما قبل مجئ السيدالمسيح للأرض بأحقاب طويلة..!

ومن داخل بوابة- الجبل المقدس- يبدأ السرداب الأرضي ويصل كما يُشاع إلى دنقلا العجوز.. نفق طويل ولا يجرؤ أحد على المسير داخله... فكأن الذي حضره وعرض سره وحرسه قبيلة من الجن وليس أولئك الرجال القدماء.. فمن الذي يعرف تحديد مدى عمقه؟

وذلك السرداب محفور لنجاة الكهنة من مداهمة العدو هؤلاء الكهنة الذين يشرفون على التهاويل القدسية ويجمعون الجوقة وينشدون بمناسبة تتويج «هارسيو تيق في نبتة»

يا مليك أرض المحس...

تعال مندفعاً مع التيار في النهر إليَّ

تعال هنا لمعبد آمون

أعطني تاج ملوك أرض المحس

لأهبكم كل البقاع

وأهبكم الفيضان العميم

والأمطار الدافقة

وأضع كل الأعداء تحت رحمتكم

تجمَّع الناس من الرجال الأقوياء والشباب الفتي والكهول ذوو الخبرة في البر وبحر النيل ووصلوا عنده.. وخرج بهم الملك العظيم القادر من – نبتة– المقدس، إبن الشمس الذي دوَّن جميع انتصاراته وكتبها ثم أودعها بمعبده في جبل – البركل– «وقد رأينا ذلك ونحن على ما نقول شهود لأننا ببساطة كنا في معيته واشتركنا في تلك الأحداث بجميع وقائعها المستحيلة».

إنه هذا الذي يحبه– آمون الأزلي– يلقي في قلوب الزعماء الهلع والفزع... والذي يحب «الخيل » حباً جماً..! وقف أمام كل تلك الجموع الهادرة وأسمعنا صوته الإنشائي المعبِّر الباتر:

« .. انزلوا إلى النيل.. وطهروا أنفسكم بمائه والبسوا ملابس الأعياد.. وضعوا عنكم القسي والسهام.. ولا يتعرض أحد منكم لآمن..!» وسار الجند العظيم بتوجيهاته.. وبدأ يحصد انتصاراته في اجتياحه للوجه القبلي فدخل مدن– ثيبة– وأهناس– وأرمنت – واب تهني– وأتوا له خاضعين حاملين للذهب والحجارة النفيسة والأنسجة الفاخرة.. وقالوا له بعد انكسارهم:–

« .. فقد ظهر فيك الملك وتاج الثعبان على رأسك.. أيها المليك المقتدر..»

هذا إرياتي الشمس– في صورة الملك آمون– آمون حاكم نبتة آمون الذي يرعاه.. آمون طيبة.. سليل إرياتي الشمس

إرياتي طفلة القمر....

ورموا تحت قدميه الزبرجد والحديد واللازورد..!

تجول في القصر وقصد من فوره- اصطبلات الخيل- فوجدها ضامرة بلا علف فاغتاظ وثار ثم أقسم بحياته وبالأله - رع- متوعداً لهم بالأذى قائلاً:-

«... إجاعة الخيول لهي من أقبح الذنوب..»

ثم سار إلى مدينة منف وتوجه للهيكل وقدم للمعبودات قرباناً من المشروبات وطهَّر المدينة بالنطرون- وأطلق البخور ثم أرجع الكهنة لأماكنهم وتوجه لمدن الوجه البحري ثم أتاه الملوك والرؤساء والأعيان صاغرين.. يضعون الريش والمظلات فوق رؤوسهم.. فسلموا له وقدموا الجزية من النفائس والعطور والخيول حتى اجتمع عنده «ملك الوجه القبلي والوجه البحري» ثم قدموا تحيتهم وتشرفوا بالمثول بين يديه، كانت فرائصهم ترتعش كفرائص النساء....

ثم وصل عند- هيلوبولس- في الدلتا حد المياه الخضراء العظيمة..! ورجع لبلاده وشحن سفنه بما أهدى إليه وقلبه مفعم بالسرور.. وعند وصوله استقبله أهل مملكته ما بين البر الشرقي والغربي والجزائر بمزيد من التجلة والتعظيم فرحين بهتاف الفرح قائلين:

أيها الملك المنصور- بعانخي - ها.....

فإنك قد أتيت سالماً.. بعد أن صيَّرت

الرجال أذلَّه .. فحلَّ الفرح في قلب أمك

التي ولدتك فصرت شهماً.. بُشرى لك أيتها البقرة التي ولدت ثوراً.. كان له على مر الدهور ذكر مخلد وملك مؤبد...!»

وهو الذي أول من استعمل الهرم حلية لقبره.. وينشد متفاخراً

ها هو الرب العظيم يقول

هاكمو ما فعلت وعجز عنه الآخرون

أنا الملك من صلب الرب

آمون الخالق.. والخالد أبداً

سليل من عبده.. وأتقاه الأعداء

والذي عرف والده .. إنه خلق ليكون ملكاً

*** *** ***

ربما يصنع الرب الملوك

وربما يلد الرجال الملوك

لكنما آمون .. خلقني وحدي

*** *** ***

أنتم يا من تعيشون أمواتاً

البؤساء الضعفاء.. الموتى

ويا أبواب المدينة ومداخلها

إذا لم تنصاعي لأوامري

سيصب عليك الملك لعنته

وبعد بعانخي سطع نجم أخيه «شبكة» الذي نقل عاصمته في المسافة المتوسطة بين القطرين في – الاقصر– وظهر تهراقا ذاك الذي أغتصب الملك من «شبتاكا» وحكم البلدين لمدة ثلاثة عشر عاماً متصلات بدون تذمر أو تفريط في أرض وادي النيل وبسطوا نفوذهم مكونين بذلك الأسرة الخامسة والعشرين بقوتها ومنعتها وسطوتها وحسن إدارتها.. فرع – كوش– الذين تكونت منهم مملكتي نبتة ومروي..

وكان – تهراقا– مهاباً لافتاً للنظر حقاً بوجهه المستدير ممتلئ الخدين وواسع العينين بارز الشفتين وبأنفه فطس قليل...

وأرادت بعد ذلك بأحقاب الملكة المنيفة– الكنداكة– المرأة المقتدرة ذات الحول والطول التي تحب الحروب وفتح البلدان أن تحذو حذو الأسلاف القدماء الذين تواترت أخبارهم عبر الأزمان.. أولئك الرجال العماليق الأفذاذ الذين دخلوا مصر.. فلماذا لا تعيد سيرة المجد القديم وقد كان عزمها أكبر من طاقة جنودها غير المنظمين..؟! الذين لا يحملون غير الفؤوس والنبابيت الغليظة.. وقابلت القائد الروماني– بترونيوس – وانتصر عليها انتصاراً عظيماً وتقهقرت منسحبة للجنوب ثم سار القائد المنتصر لنبتة– وخربها حتى فرت منه الملكة – الكنداكة– لقلعة في الشلال الرابع... وحين يئست تماماً أرست للامبراطور– أغسطس– بطلب الصلح ولكن على شروطها .. هي.. استعجب الأمبراطور من ذلك الطلب ووافق أخيرا ..ثم رجعت لمقر

دولتها في مروي...

ورجعنا علي الطريق الدائري الجديد الذي يلتف حول المنطقة وعلى قمة الجبل من ناحيته الغربية بعض السائحين يحملون مناظيرهم البعيدة يستكشفون والشمس تأذن بالمغيب.. امرأة وثلاثة رجال.. أنظارهم متجهة نحو – كريمة– تبدو خضراء وباسقة النخيل.. وعربتهم بعيدة عنهم رابضة عند سفح الجبل وليست بعيدة عن الطريق الأسود.

عندما يصل أهل الحامداب– يمشون في سوق – كريمة– بقصد البيع والشراء في التمر والأغنام و السكر والبن والمحصولات، والذين يتلقون العلم من مراحله الأولية والخلاوى يدرسونها في – الكاسنجر– التي أتاها الشيخ شرف الدين وكان ذلك فيما يقال، زمن – العنج– وتلك كانت أرضاً تسمى بلاد «التكاكي » وبحلول منتصف القرن الرابع عشر سيطر– العنج– على النوبة القدماء في منطقة الأبواب ما بين الشلال الرابع والخامس.. وكثيراً ما يذكر الأهالي عند حفر الآثار وإستخراج العظام أن هؤلاء من – العنج– ودون دراية بالأحقاب التي مرت منذ ما قبل التاريخ وحتى العصور الإسلامية..!

وأتي فرع– العباسية– من ذلك الجد .. الذين أحيوا كثيراً من السواقي في منطقة الشوايق– ويقال إن في «الشايقية» عنصراً من «البجا» في أمهم – قليش– ويبدو ذلك من هجرة «العنج» من مناطقهم الأصلية التي انحدروا منها في بلاد «التاكا» وإلى النيل.. وأبعد من ذلك في إستقرارهم بمنطقة – البطانة– وحتى أن فرع الأسرة المالكة في

علوة من العنج– أو– الأنج– فتأملَّ – يا رعاك الله... ذلك الانتشار ما بين منحنى النيل وإلى الصحارى والفلوات الشرقية ومقابرهم قد وجدت في أمري والحامداب.

« .. رجعنا من نفس طريقنا ودخلنا الاستراحة والبوفيه وتناولنا وجبة العشاء الجاهزة المكتملة.. وهم جاهزون لمجئ أي طارئ من الضيوف الذين يهبطون فجأة وذلك فوق تقديم الخدمة للعاملين هناك من مهندسين وغيرهم... عبرنا الجسر العائم وهبط الظلام الموحش وكان الصمت وغطى بردائه الثقيل الجبال والنيل والقرى الجالوصية «التي كانت».. بهندستها منذ القرن العاشر الميلادي ثم طرأ عليها التحديث والتوسيع.. وكان طلاء اللون الأبيض يغلب عليها من قلة المطر الذي ينزل عليها نقاطاً لا تطفئ ظمأ.. ومع تلك العزلة فإنهم يخرجون أفراداً وجماعات».

ذكر- المقريزي- أنه شاهد-

« في بلاط ملك النوبة قابل ابن سليم الأسواني رجلاً فسأله عن بلده فقال «مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة...

فسأله عن دينه فقال... ربي وربك الله.. ورب الملك ورب الناس.. وهو كائن في السماء وحده.. فإذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة.. صعدوا الجبل ودعوا الله، فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط رسولاً فيهم... ذكر له إبن سليم رسالة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وما أبدوا من المعجزات.. فقال إن كانوا فعلوا هذا ... فقد صدقوا.. وقد صدقتهم إن كانوا فعلوا »

تغطي المياه على الرغائب الجميلة التي كانت في تلك القرى... الآهات والزفرات ... والأحلام.. والتاريخ الذي انتقل إلى الصدور ومنذ عهد «شايق» منذ ساعة هبوطه ووصوله لجزيرة أمري ثم تفرق أبناؤه بين البلدات العديدة.. فقد خرج من صلبه نساء كأنهن رجال.. نساء ذوات عزم وجسارة يقدن الجيوش ويحرضن بالشعر، وفي زمن الفونج والعبدلاب تمرد عليهم «حمد ود عمارة ودالعزلة» بتحريض من أمه الفارسة الشاعرة فأبت عليه أن يكون دونهم يدفع لهم المكوس وقد كان الفتى مشهوداً له بالذكاء الواسع والحيلة وكان عبقرياً في فنون الحرب..

وأتاه – الأمين ودعجيب في ثلة من عسكره وأقام هناك يتربص «بحمد» وعسكر بجيشه أمام جزيرة – أمري– على سفح الجبل... وجاء– حمد– مطمئناً آمناً للمفاوضات وكان – الأمين– يضمر له الخداع فأراد قتله داخل المعسكر... وكان هناك أحد الجنود من الشايقية فغمزلحمد –الذي فهم كل شيء ووجد فرصته وهرب وعاد لأمري يتدبر أمره ... وما كان لديه من الخيول الا العدد القليل ففكر ثم قدر ودبر ... أعطى الخيول عشباً جافاً وطلب من رجاله أن ينزلوها للنيل حتي تشرب وكانت عطشي من أكلها للعشب الجاف ... في المرة الثانيه طلى تلك الخيول بالجير الأبيض ثم في المرة الثالثة مسح لونها وطلاها بلون رمادي مغاير وبذلك تكون قد نزلت وشربت من النيل مقدار ثلاث مرات بسبب عطشها.. وهكذا فإن معسكر جيش الفونج كان يراقب كل ذلك حتى

أصبح متيقناً أن–ودالعزلة– يملك عدداً من الخيول الكثيرة ويعني ذلك أن في استطاعته مقاومتهم.

وأتى «ودالعزلة» بعدد من الحيوانات «كلاب وحمير وقطط وغنم» ربط فوق ظهورها القش وسار بعدد من رجاله نحو معسكر الفونج وعندما اقترب أشعل القش على ظهور تلك الحيوانات المذعورة فهربت ودخلت المعسكر واقتحم ودالعزلة معسكر ودعجيب مع رجاله.. وكان عنصر المباغتة والمفاجأة وكأن الشياطين أتتهم كالصاعقة فانفرط أمنهم وتشتتوا ووقع– الأمين– في الأسر وتحت التهديد المباشر أقرَّ «الوزير» باستقلالية الشايقية عن الفونج، وتأسست بعد ذلك – مملكة العامراب في أمري أول ممالك الشايقية.. وحاضرتها قرية – زويرة– ومن يومها أصبح تقليداً عند الشايقية تقدم المرأة الفارسة في ميدان الحرب، فهي التي تبعث في النفوس الحماسة والإقدام وتعطي بعد ذلك إشارة الحرب...! وكانت أول الفارسات – عديلة– وفي معركة– كورتي– ضد الاجتياح التركي خرجت مهيرة بنت الملك عبود على هودج البعير المزدان والمزركش وخرجت معها– صفية بنت الملك شاويش وكانت مهيرة تحث عيال شايق على الثبات وإلا فإن النساء هن البديلات لخوض المعركة... والباشا الذي يقود الأعداء غشيم لا يقود إلا قطيعاً من الدجاج.. ودخل الرجال المعركة وقلوبهم تهفو للقاء يقتربون من الأعداء في خفة وهم يمشون لملاقاة الرّدي ففيه راحة لأبدانهم وهو عيد يسرهم الاحتفال به...

«أم مـريخ» وشـجـر المـرخ – أم دويمي– وشـجـرة الدوم الوحـيـدة، واستقر الشاعر المغني تحت – الدومة– وكان غريباً على المنطقة.. كان يعمل ويزرع الأرض ويبدو هاشاً عند مرأى الجمال. وتسيل قريحته السيّالة يبوح بوحاً ساطعاً فلا يكتم ذلك.. وتسّرب ذلك الغناء على «الطمبور» فلا يحبسه، وكان من صفاته القوة والدفاع والضرب الشافي لمن يتحرش به وهو يحمل ربابته يصدح بالغناء جهرة فلا يخشى لومة لائم واجتمعوا وقالوا فيه الكثير بسبب تلك التحرشات المتبادلة.. وكيف له أن يسكت وهو يتملىَّ الجمال في غدواته ورواحه.. فكان الأمر الذي لا معقب عليه من جناب «العمدة» ذي اليد الطولى والأمر النافذ في المركز.. فغادر المنطقة نفياً للهضاب الشرقية حتى تخوم – الأرتريا ....! وتأسَّى من ذلك وقلبه ينزف يسيل بين الصخور والطين تحت سطوة الحزن.

الفُرقة صَعِيبة

وإن طر للثريا وعنقريبا

قَبل دوري يحصل في لكيبا

ما لونَ حمُوا الروح ترقُد في عَنقريبا

***

والنيل ينسرب تحت الظلام تلثمه النجميات البعيدة وهو حزين فقد كانوا قريباً منه يرتبطون به إرتباطا وثيقاً يأخذون منه البركة يتعمدون فيه يرمون عليه «مشيمة» المولود الجديد وينادون باسم الرجل الفالح

العَلَم المشهور في رأسه النار يتمثلون به.. وينادون عليه

«.. يا فلان.. ! يبقى منك وأخير منك...»

ويأتون بالصبيات المختونات..

تحمل – النفساء– في أربعينيتها وليدها تأتي به للنيل ومعها النسوان وهي بينهن.. سمينة فلا هزال يبدو عليها وقد اعتمدت في غذائها على «البربور والسمن...» وهزوا عليها بجذغ النخلة من تمر – ودلقاي– والكريق– .. استدار وجهها وامتلأت سيقانها.. تغتسل ثم تغسل مولودها وتغسل ملاءتها وفرشها.. وتلبس ثوبها الأحمر... تناجي «بحر النيل» وعرائسه من الحوريات تتمنى صلاح وليدها ورفعة شأنه يشب كشجرة مبروكة وظليلة ينتفع منها الناس...

عريسنا سار البحر ❖❖ وقطع جرايد النخل

فالو داع الوداع.. للذين أرتحلوا وغابوا حديثاً من الفوج الثالث في أول السنة الرابعة من الألفية الثانية.. أبنائي وبناتي وأحفادي الأعزاء.. من – الكير والشيخاب والقطين وأم مريخ والعرقوب وحجر صائل وكنيسات ودار صالح الذين ابتعدوا عني في العهود الأخيرة وتركوا طقوسهم المتوارثة فأين التي كانت تحمل «.. مشيمة المولود» وتأتيني وترقص على حافة الشاطئ بسيفها...!

وبارك الله في ذريتها – فاطمة بت حسن» فما نسيت أو تولت وأنكرت.. كانت تأتيني وهي طفلة غريرة مع صويحباتها حتى أتاها

الحلم.. وجاءوا لي بها في زواجها.. وأتتني «سائرة» مع ابنها في زواجه الأول:-

الليلة العَديلة تقدموا وتَبْرا

ويبقالك حلو وأبيض من القمرا

قولن يا بنات.. واصنَّتن قولي..

***

ثم جاءت مع ابن ولدها عند ختانه فباركته لها

أنا قولي لي عبداللطيف

المطره والزِيف

ومِجرجر الخريف

أبوك صندوق ديار

أُمك سِت الدَّهب الكُبار

إخوانك استروا الحال

فيا أيها الذين تولوا عنيَّ .. فبركاتي معكم أينما حللتم وطبتم وسأعرج عندكم أمد لي لساناً في بيدائكم عند حبسي...!!